القسم الأول

أهل الوديان

الفصل الأول

مقـــدمات الرحلة

الأزمة مع اليمن — معدات السفر — خطة العمل — رفاق السفر — عود على بدء

١ — الأزمة مع اليمن

ليس كتابي هذا كتاباً يبحث فى السياسة أو يشرح أسباب النزاع بين الملك ابن سعود والإمام يحيى والحرب والمفاوضات والصلح وما جرى خلال ذلك من أحداث جسام بين الحجاز واليمن ، وإنما هو كتاب رحلة وجغرافيا وتاريخ واجتماع . وقد كان السبب فى كتابته الأزمة اليمانية — السعودية التى اشتد أوارها عام ١٣٥٢ وقدح زنادها عام ١٣٥٣ . هذه هى العلاقة بين هذا الكتاب وبين الأزمة اليمانية أحببت أن أوضحها بجلاء فى مستهل الكلام .

الملك عبد العزيز والإمام يحيى ، حاكمان عربيان مسلمان ، كلاهما جاهد جهاد الأبطال فى سبيل دينه وعروبته ووطنه ، وكلاهما خاض المعارك وناجز القروم والأبطال ، فاستتب له فى النهاية ملك طويل عريض ، والعاقبة للمتقين .

اتصل ملك الملكين العربيين مباشرة واختلطت مصالحهما على حدود واحدة باستيلاء الملك ابن سعود على عسير السراة وامتداد حمايته على عسير تهامة واتصاله بأهل نجران من أيام ، وذلك بعد زوال السيطرة العثمانية عن بلاد العرب عام ١٩١٨ ميلادية .

تطورت علاقات الملكين خلال عشر سنوات انقضت على اتصال حدودهما مباشرة تطوراً كان يلحظ فى ثناياه وتضاعيفه عوامل خفية ، وأدرك كثيرون من العقلاء أنها ستؤدى حتما إلى اللجاج فى النزاع فى الحرب ، وقد تنبه كثيرون إلى نقاط

الضعف فى علاقات الملكين وحاولوا إطفاء الوميض الكامن فلم يوفقوا إلى اجتثاثه من أصوله .

كانت الشرارة الأولى عقب احتلال الملك ابن سعود للحجاز ، فقد تطرق الوهن والضعف إذ ذاك إلى الإمارة الإدريسية فى تهامة ، وتقلصت أطرافها باحتلال الجيوش المتوكلية لأكثرها وفى مقدمتها الحديدة واللحية فميدى وما صاقبها من جهة الجبال وكادت تصل إلى جيزان ، بل قد وصلت بالفعل إلى سامطة بقرب أبو عريش ، وإذا بالقنبلة السعودية المنذرة بالخطر والمحذرة لليمانيين من الاندفاع وراء أهوائهم تنقض انقضاض الصاعقة . وكانت القنبلة على شكل معاهدة الحماية السعودية على بلاد الأدارسة فى ربيع الأول عام ١٣٤٥ .

وكانت الشرارة الثانية فى شعبان عام ١٣٥٠ حينما تقدمت جيوش الإمام يحيى فاحتلت بلادا تابعة للمقاطعة الإدريسية التى تعهد ابن سعود بحمايتها من كل خطر داخليا كان أم خارجيا . دارت المفاوضات بينما الاستعدادات الحربية من الجانبين جارية بكل همة ونشاط ، وتكللت المساعى السلمية ولله الحمد بالنجاح التام بفضل حكمة الملك ابن سعود ورغبته فى السلام والسكون . جاء حكم ابن سعود على نفسه فى قضية جبل العرُو مثلا من المثل العليا فى الشهامة العربية والحكمة والعبقرية ، فقضى على الفتنة ولكن دون اجتثاث جرثومتها .

وكانت مسألة نجران ثالثة الأثافى للموقد الذى تطايرت منه الشرارة الثالثة التى ألهبت الضرم وأجّجت النيران ، إذ كان كل من الفريقين يدعى بنجران دون أن يكون محتلا فعلا بقوى أحدهما . لقد أبرق الإمام يحيى للملك ابن سعود مستريبا من اتصال أهل نجران من اليامية بأمرائه فى عسير ، فأراد ابن سعود أن يبعد الريبة بشكل مقبول ، فأبرق إليه برقية تأولها الإمام يحيى لمصلحته ، وكأنه قرأ فيها تنصّل ابن سعود من نجران واليامية ، فأمر جنده بالتقدم لاحتلاله بينما كان وفد ابن سعود يدخل حدود اليمن من جهة تهامة للمفاوضة فى مشروع حلف عربى عظيم .

فشل الوفد فى مهمته ، وتمّ احتلال نجران ، فلجأ أهله إلى ابن سعود يطالبونه بحمايتهم وفاء بعهده الذى قطعه لهم منذ سنين ، ودارت المخابرة بين الملكين بالبرقيات ، وطال الأخذ والرد ، وحصل تحرش آخر آلم ابن سعود وأثار حفيظته ألا وهو احتلال قسم من جباله فى تهامة ، والقبض على رهائن من قبائله على الحدود ، فظهر أن الأمر أكبر من أن يحلّ بالمخابرات البرقية .

قرّر الملكان أن يعقد مؤتمر فى أبها للنظر فى حل الخلاف ، فانتدب الإمام يحيى ابن عمه السيد عبد الله بن أحمد الوزير — أحد كبار القوّاد والساسة فى اليمن — أمير الجيوش المتوكلية فى تهامة لرياسة وفده ، ونثر الملك عبد العزيز كنانته فعهد إلى مؤلف هذا الكتاب برياسة الوفد العربى السعودى .

وكان أن توجهت إلى أبها فى ١٤ شوال ١٣٥٢ (٣٠ يناير ١٩٣٤) ، وآليت على نفسى أن تكون رحلتى مزدوجة الفائدة من الناحيتين : السياسية بالعمل على إنجاح المؤتمر ، والأدبية بتدوين مشاهداتى الجغرافيـة وجمع المعلومات التـاريخية والاجتماعية عن أحوال ما أمرّ به من تلك البلاد البكر التى لم يكتب عنها إلاّ اليسير وإخراج ذلك للناس فى سفر . هذه هى قصة ميلاد كتابى ، وتلك هى العلاقة بينه وبين الأزمة اليمانية .

٢ — ممدات السفر

يحتاج السفر فى بلاد العرب إلى ترتيبات خاصة هى من مقتضيات طبيعة البلاد ، وقد أفادتنى رحلاتى العديدة ما بين نجد والحجاز والأحساء فوائد لا أنكرها ، غير أنى كنت هذه المرّة قاصداً بلاداً غير مطروقة تكاد تكون معلوماتنا عنها كمعلومات صبيان المدارس ، فرأيت أن أستعد للمجهول أكثر من استعدادى المعتاد ، لاسيما لاعتزامى تدوين مشاهداتى للأماكن والمسافات والأبعاد والآبار والموارد والقبائل والقرى والأودية ، واستقصاء ما هو مجهول عنها ، ووضع خريطة للطريق يصح أن يرجع إليها .

أمّا من الوجهة العلمية فقد أحضرت ما أمكننى بداركه من الآلات البسيطة التى يستعين بها الرّواد فى رحلاتهم ، وأعددت كشوفاً وأوراقا خاصة لتسجيل الأبعاد والانحرافات المغناطيسية ودرجة الحرارة والبارومتر ، كما أعددت مكتبة صغيرة مما طبع من كتب الأقدمين عن بلاد العرب وعددا من الخرائط الأفرنجية ، وكانت نيتى التوغل فى نجران وهو القسم المجهول حتى الآن فى الجزيرة ، وجعل عودتى إلى مكة المكرمة عن طريق كتف السراة مستعينا بالإبل والخيل على اجتيازها إلى الطائف مارًا ببلاد بنى شهر وغامد وزهران ، فأكون قد جست خلال الديار التى نجهلها فى الجزيرة وحققت مواضع مشهورة كالخلصة فى بلاد دوس وتبالة وجرش وسواها ولكنى حرمت — مع الأسف — من العودة بالطريق التى كنت أقصد ، فاكتفيت بالمعلومات عن البلاد التى زرتها .

أمّا أدواتى العلمية فقد كانت مؤلفة من :

(١) بوصلة مضبوطة (٢) بارومتر

(٣) ميزان حرارة (٤) شريط مساحة

(٥) جداول وكشوف جغرافية وفنية (٦) آلات تصوير من قياسين

وكان عداد السيارة يقوم بمهمة تسجيل المسافات .

٣ — خطة العمل

كنت أرى أنه مما يمس العزّة القومية فى الصميم ألا نقوم — ونحن أبناء البلاد وأهلها — بدرس أحوالها وكتابة جغرافيتها وتاريخها كما يفعل الأفرنج ممن تتاح لهم زيارتها فترة قصيرة فيملئون الدنيا كتابة وخطابة عن مشاهدات كثيرا ما تكون سطحية مدسوسة ، وكنت شديد الحرص على الاستفادة جهد الطاقة من كل أسفارى فأخدم بذلك العلم وأرفع عنّا سبّة يوجهها إلينا الأفرنج فى غير تورع ولا قصد ، فوطنت النفس فى رحلتى هذه على اهتبال الفرصة السانحة لى والخروج منها بنتائج علمية باهرة ، فاستشرت أحد أصدقائى من الأفرنج المقيمين فى هذه البلاد

عن اعتاد القيام برحلات فى البادية ، ورجوته أن يسعفنى ببعض معلوماته ويعيرنى بعض أدواته ، ومع أنه كان لا يزال من أصدقائى فإنه كان شحيحاً بمعلوماته ضنيناً بأدواته ، ولحظت منه أنه غير آبه كثيراً للموضوع ، بل بالأحرى لم يكن على ثقة من أن وطنيا يستطيع أن يأتى بمثل ما يأتى به الأفرنج ، كأن العلم وقف عليهم .

كل هذه العوامل جعلتنى مرهف الأذنين حادّ العينين ، منقّباً عن الكبيرة والصغيرة ، محققاً جزئيات الأمور ودقائقها ، سائلا متعلماً جامعاً للروايات والأخبار ، مهتما بكل ما تقع العين عليه أو تسمع الأذن به أو تمسّه اليد .

واصطحبت صديقاً من المهندسين لكى يفيدنى فى أخذ قياسات الانحراف المغناطيسى ورسم خريطة الطريق ، كما اصطحبت من كل منطقة يمّمتها دليلا خبيرا بها .

كنت أجمع أسماء الأماكن والمواقع والآبار والأشجار والأخبار من الأدلاء والخبراء المرافقين أو المصادفين فى الطريق ، وكانت ظروفى مواتية للبحث بدقة ، إذ كان علىّ أن أبحث مع وفد اليمن فى مقاطعات الحدود ، وهذا لا يمكن إلا بجمع المعلومات الصحيحة المفصّلة الدقيقة عنها وعن سكانها وما فيها ، الأمر الذى أفادنى فائدة كبرى ما كانت تتسنى لغيرى فى ظروف غير ظروفى . وبالفعل لم يمسك عنى أحد معلوماته ، ولم يدخر وسعا فى سبيل إطلاعى على كل ما أريد من أهل الخبرة والدربة ومن رجال الحكومة وأمراء القبائل والموظفين وغيرهم ، وكنت أعارض المعلومات بعضها ببعض فيظهر لى صريحها من هجينها وغثّها من سمينها ، ولذلك فأنى واثق من أن ما أعرضه فى هذا الكتاب من المعلومات هو أدق وأصح ما يمكن الحصول عليه .

أما الأرصاد العلمية فإننا كنا نتخذ عداد السيارة أساساً لقياس المسافات ، وكنا نعارض عدادى السيارتين ليتبين لنا الفرق بينهما ، وحينما ظهر لنا أن الفرق بين العدادين جزئى جداً قررنا الاعتماد على أحدهما ، وبناء على ذلك فقد وجهنا اهتمامنا

إلى تسجيل قراءات الانحراف المغناطيسى فى البوصلة فى مسافات معينة ، وكانت القراءات فى الأماكن الفسيحة السهلة أقل منها فى الأماكن المتعرجة أو الكثيرة المنحنيات . لقد أخذنا مثلا ٤٩ رصداً من بئر القرشية فى أطراف ركبة إلى جهة الطائف إلى آبار بريم فى طرف حَضَن الشمالى ، والمسافة بين الموضعين ٩١ كيلومتراً ، وأخذنا ٤٨ رصداً للانحراف من بريم إلى الخرمة فى مسافة تبلغ ٦١ كيلومتراً .

وأما الاتجاهات التى كنا نرصدها فقد كانت دائماً اتجاهات طريقنا ، وكنا نعتمد على مشاهدة شجرة أو قلعة لنسجل الرصد عليها ، غير أننا وجدنا أن عملنا يكون أضبط وأدق لو تقدمتنا السيارة الكبيرة لنتخذها هدفاً للرصد .

وكانت الأرصاد فى بعض الأحيان كثيرة عند المنحنيات ، كما كنا نأخذ أرصاداً متعددة من نقطة واحدة إلى اتجاهات مختلفة عن اتجاه طريقنا . ففى نقطة واحدة فى القرشية أخذنا خمسة أرصاد فى اتجاهات مختلفة ، وفى مواضع أخرى كانت الأرصاد تبلغ ثلاثة أو أربعة أو خمسة حسب الظروف ، وجل قصدنا من هذا الدقة فى تسجيل الصفات البارزة على الطريق وأطرافه ؛ علّنا نتمكن من رسم خريطة مضبوطة يصح الاعتماد عليها ، وكنا نسجل إلى جانب دفتر الأرصاد شروحاً عن ظاهرات الأرض وطبقتها والشجر والمياه والأودية والقرى ، وعلى الإجمال كل التفاصيل التى يجب الوقوف عليها .

وكنا نسجل درجة الحرارة ثلاث مرات فى اليوم ، صباحاً وظهيرة ومساء .

وأما (البارومتر) فكنا نسجله كلما تراءى لنا أننا فى صعود وارتفاع ، وكنا نسجل القراءات بالإنش وأقسامه وبالقدم أيضا ، لأننا نعلم أن استحصال الارتفاع بتعديل قراءات (البارومتر) على درجة الحرارة أدق من قراءة الارتفاع بالأقدام .

٤ — رفاق السفر [1]

أكثر ماينطبق المثل القائل « الرفيق قبل الطريق » على السائح فى بلاد العرب ،

(١) من المعلوم أن رفاق السفر غير رفاق المؤتمر . اشترك معى فى المؤتمر الشيخ عبد الله ابن زاحم قاضى معسكر الأمير سعود ، والشيخ عبد الوهاب أبو ملحة مدير مالية عسير والشيخ دليم ابن محمد أبو لعتة أمير قحطان عسير ، والشيخ تركى بن ماضى أمير غامد وزهران .

فى البادية ، فى المجاهل والمفاوز ، وقد كنت كذلك ، ولو كنت سائحا فى غيرالجزيرة لما اهتممت بالبحث عن الرفيق قبل الطريق .

كنا نجهل ما تأتينا به الأقدار بعد وصولنا إلى (أبها) واقترابنا من منطقة الخطر ، ولذلك اخترت رفاقى ممن يعتمد عليهم وقت الشدة ، فكان فى مقدمتهم المهندس محمد كنعان خريج الجامعة التركية فى إستانبول ، وهومن شباب العرب الذين اشتركوا فى أكثر الحركات العربية ، وقد كان وجوده معنا مساعدا على أخذ القياسات وتسجيل الأرصاد ودراسة حال الطريق ، فضلا عن أنه كان مصدر أنس وتباسط بسبب بعض الصفات البوهيمية فيه . أذكر ويذكر رفاقى بكل اغتباط وقائع مسلية كان بطلها وفارسها كنعان . لقد افتتح الرحلة بنكتة ظلت وقتاً طويلا باعثاً على الضحك والانبساط . حين ركوبنا من مكة المكرمة كان نصيب كنعان فى سيارتى الخاصة ، فوجد فيها بنادقنا ومسدساتنا و بندقية الصيد وقراطيس الخرطوش ، فانتقد وجودها فيها ، واقترح نقلها إلى مكان متسع فى السيارة التى تتبعنا ، مع كوننا مسافرين إلى ساحة الحرب وقد نضطر إلى الاشتراك فى المعارك . ولا تسل أيها القارئ العزيز عن ابتهاجنا بهذا الاقتراح ولمزنا لكنعان بسببه . وكان أن وصلنا إلى مكان بقرب السيل الصغير على طريق الطائف ، فنفد بنزين سيارتنا ، ومكثنا ساعتين فى انتظار السيارة الكبيرة لنملأ خزان سيارتنا مما تحمله من وقود ، وهنالك قلنا لكنعان : وما رأيك لو كنا فى البر وصادفنا صيداً ، أو وحشاً كاسراً ، أو عدوا ، ألا يحسن بنا أن نرجوه الصبر والتأنى حتى نأخذ سلاحنا من السيارة الكبيرة ونستعد لمقاومته حسب اقتراحك ؟ ! . هذه النكتة وكثير غيرها يدل على روح كنعان الخفيفة وطبيعته الساذجة البريئة .

والشخصية الثانية فى الرفاق بعد كنعان : سكرتيرى الخاص محمد شيخو ، وهو أليف الأسفار ورفيق المسافر ، صحبنى فى كل أسفارى فى البدو والحضر ، وأصبحت له ملكة فى إعداد معدات السفر و إدارة الرفاق .

وهنالك تابعان خصوصيان لخدمتى الشخصية ، وهما مكلفان بكل ما يتعلق بشخصى فقط .

وهنالك « القهوجى » ، وهو زميل الرفاق وسميرهم ، تجمعهم أكوابه وأباريقه ، وعنده الحلقة الكبرى ساعات الحل وأوقات الاستقرار .

وهنالك أيضا شخصية عقيد الحملة الذى هو بمثابة رئيس للأتباع ، ووظيفته الإشراف على الخيام والمياه والحطب ، وإصدار التعليمات إلى رفاقه بالاستعداد للسفر ، أو بالتوقف عنه ، أو بنصب الخيام ، وهو همزة الوصل بين السيارة الصغرى وبين ما يتبعها من سيارات الرفاق .

أما الطاهى ومعاونه وأدواته فإنه لا يقرن « بالقهوجى » إلا إذا صفقت المعد من الجوع وألحت فى طلب الطعام ، عندئذ يهرع الكل إلى قِدره ، هذا ينفخ فى النار وذاك يوقد الحطب ، وغيره يذبح الذبيحة ويسلخها ، وآخر يجلب الماء ، والكل فى تلك الساعة أتباع للطاهى . أما إذا امتلأت البطون وعافت الأنفس الطعام ، ترفّع الرفاق عن الطاهى ، وعاد هو إلى وحدته لا يؤنسه فيها إلا معاونه .

أما السائقون ومعاونوهم فإنهم يتعبون فى السفر ليستريحوا وقت الإقامة ، إذ ما يكاد يصل السائق بسيارته إلى المقيل أو المعشّى أو المضحّى ، وما يكاد يترك عجلة القيادة حتى ينبطح على الأرض فى ظل سيارته أو فى ظل شجرة .

والشخصية الفذة فى السفر هى شخصية الدليل أو الخبير ، وهو فى الغالب بدوىّ من أهل الديار التى نجتازها ، ويختار عادة من البادية ، لأنه أوسع خطى ، وأبعد مدى ، وأعلى كعباً من الحضرىّ الذى تنحصر معلوماته فى الحواضر وما جاورها . وقد استخدمنا أدِلّاء كثيرين ، فكان فيهم الخفيف الروح والثقيل الظل والماهر ببيع معلوماته والمبالغ فى الوصف والمقل المقتّر .

٥ — عود على بدء

لم تتح لى الظروف الفرصة التى أردت ، فقد اصطدمت مفاوضاتنا بعقبة كؤود لم يمكن تذليلها ، وانقطعت المفاوضات بين الوفدين فى (أبها) ، فانتقلت إلى يد الملكين من جديد ، ومكثنا فى (أبها) مدة لم نضعها عبثاً ، فقد جُسْنا خلال بلاد عسير وما جاورها من بلاد شهران ؛ وتفقدنا العقبات الثلاث المشهورة ، وأرسلنا المهندس للكشف عن أسهلها وأقربها تناولاً ، لشق طريق منها إلى تهامة لعبور السيارات ، واجتمعنا بأعيان البلاد — وقد جمعتهم دعوة الحرب — فى مخيم سمو الأمير سعود ولىّ العهد فى بلاد شهران ، واتصلنا بأشخاص ما كان الزمن ليسمح بالوصول إليهم ، فضلا عن الاتصال بهم ، لولا حالة الحرب وضرورتها ووجوب الوقوف على كل شاردة وواردة مما يتعلق ببلادهم ، فجمعنا معلوماتنا ورتبناها وبوّبْناها على قدر الإمكان ، وعارضنا الأقوال والروايات ، إلى أن قنعت بأنى لم أترك أمراً هاماً ما قيدته ، ولا خبراً من أخبار القوم ما دونته ، فإن كنت فشلت فى إكمال رحلتى على النحو الذى رسمته لها ، فقد وفّقت فى جعل القسم الذى قمت به من الرحلة ناجحاً موفقاً .

الفصل الثانى

ركبـــة

السمر فى القمر — عكاظ — آبار القرشية — سهل ركبة

١ — السمر فى القمر

غادرنا الطائف عصر يوم الثلاثاء الواقع فى ١٥ شوال سنة ١٣٥٢ (٣١ يناير سنة ١٩٣٤) وكنّا فى ركب سمو الأمير فيصل ، فأرادنا على أن نسمر فى أحد الأودية فى أرض الجُدَيْرة ، على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً من الطائف ، وناهيك بالسمر فى الخلاء تحت أديم السماء الصافية الزاهية ، والقمر بدر ينير الأرجاء ، فتنعكس أحسن صور الليل المقمر ، وترتسم أجمل المناظر فى الصحراء المرتفعة . ومجلس الأمير فيصل جزل بالنكتة عامر بالمحاورات الأدبية النثرية والشعرية العامية ، ويتخلّله نوع من إنشاد الأشعار يسمى بالردح ، وطريقة الردح أن ينقسم المجتمعون والشعراء فريقين فيلقى أحدهم موضوعا للإنشاد فيه ، وعلى شعراء كل فريق أن يردوا ببيت شعرى ، ولا يجوز التكرار لا فى المعنى ولا فى القافية . وكل يحاول بث روح الحماس فى شعرائه ، فترى هؤلاء يتسابقون إلى إلقاء البيت المنشد على البديهة ، ويظل رفاق الشاعر يرددون البيت حتى يفتح الله على شاعر فى الفريق الآخر للرد عليه ، وهكذا دواليك .

عاشرت الأمير فيصل فى بلاد التقاليد والتمدن ، وفى الحفلات والولائم الأوربية ، وعاشرته فى الحجاز وفى نجد ، كما عاشرته فى بعض نزهاته الخلوية ، وإذا به أمير المجالس أينما كان ، متمدن فى بلاد التمدن ، بدوى بين البداة ، فارس مغوار بين الفرسان متى أطلقت للخيل أعنتها . ففى هذه الليلة أرسل الأمير نفسه على سجيّتها محاكياً بذلك البداوة الساذجة فتمثّل أميراً أعرابياً ؛ يشارك قومه ما هم فيه ،

فيشترك معهم فى إيقاد النار وشواء لحم الضأن على طريقة البدو ، ويأكل الشواء الناضج على الرماد الحار أو المطبوخ فى جلد مدفون بالرماد .

من أراد نشاط البرّ، وطلاوة العيش الحرّ فى الخلاء والقفر ، فعليه بمجلس الأمير فيصل ، ففيه الغذاءان العقلى والجسمانى ، ولكن أين نحن الآن مما نحن مقبلون عليه ؟ ودّعنا الأمير فى آخر السهرة ، وسرت بنا سياراتنا تنساب فى ضوء القمر . وكانت الليلة عامرة ، وكان الهواء عليلا ، وكل ما فى الليل من رفق وهدوء وعذوبة يبعث على الاغتباط ، فوصلنا حوالى منتصف الليل إلى آبار القرشية فى طرف ركبة من جهة الطائف ، حيث اعترضنا تمضية ما بقى من الليل ، لكى نتمكن من القيام بواجبنا العلمى الذى أخذناه على عاتقنا فى وضح النهار

٢ — عكاظ

قد يخال القارئ أنى أقصد تسمية مجلس الأمير فيصل عكاظاً ، والواقع أنى أقصد عكاظاً آخر ، أقصد عكاظاً الصحيح الذى لا يوجد من يعرف العربية دون أن يكون قد سمع بعكاظ وسوقه .

وليس هذا الكتاب موضوع بحث عن عكاظ ، فلذلك مقام آخر[1] ، غير أنى — فى مطلع رحلتى — عرفت عنه أمراً مضى علىّ وقت غير قصير لم أوفّق إليه كنت أبحث عن عكاظ وموقعه ، وأجمع المعلومات وأتفقّد المواقع التى ورد ذكرها فى أخباره ، وكنت أعلم أن موقع السوق مختلف فيه ، وأنه بجوار « نخلة » بينها وبين الطائف ، أو عند ذات عِرق بينها وبين قرن المنازل ، وأنه جرت بقربه حرب الفجار أيام الحريرة والأَتَيْداء وشِرب ، وأن فى أطرافه العُبَيْلاء والفَتْق وغيرهما من المواضع ، وبرغم كل محاولاتى لم أستطع تعيين أكثر هذه الأماكن على وجه التحقيق ، ولكنى اكتشفت خبر شِرب ليلة سمرى فى مجلس الأمير فيصل ، وإليك البيان :

---

(١) وضع المؤلف رسالة عن « عكاظ » وتحقيق موضعه لم تطبع للآن .

بين الطائف وذات عِرق جبال وهضاب وسهوب تقسم المياه إلى خطين مائلين ، فالخط المائل الغربى تجتمع مياهه فى أودية السيل الصغير ووادى المِحرم (قرن المنازل) والكَفو والسيل الكبير ، وأما الخط المائل الشرقى فإنه يصفّى مياه السفوح والهضاب الشرقية .

تعرف الأرض المستوية الممتدة من جوار بلدة أم الحمض إلى الرّبوة بأرض الجُدَيرة ، وتجتمع المشارب ومجارى السيول فى الجُدَيرة فى واد كبير هو وادى شِرب الوارد ذكره فى قصّة الفجار وعكاظ . ويمتدّ وادى شِرب من الربوة إلى قرب الأُخَيْضر ماراً بالضلع الصالح والعقرب والمبعوث ومجتازاً ضِلع الخلاص وضلع الكُلَيَّة إلى القُرَشِيّة ، ثم تغور مياهه فى سهل ركبة فى مكان اسمه الخاش .

وركبة تبتلع كثيراً من مياه الأودية القادمة من جهة الطائف ، فهنالك غير وادى شِرب الذى يعدّ من أعظم أودية هذه الجهة والذى تصب فيه المياه المتجمعة فى سبيل القَيْم وأم الحمض والربوة والجُدَيْرة ، هنالك وادى العَرْج ووادى لِيَّة وغيرهما .

أفادنى هذا الاكتشاف فائدة عظمى فى إقناعى بمكان عكاظ الصحيح ، وكنت من قبل قد لمست أطراف الحقيقة فى أبحاثى وتحرّياتى عن موقعه ، وشرعت فى تكوين فكرة سليمة له ، فجاء خبر شِرب قاطعاً جازماً بصحة الفكرة وقاضياً على كل شك فيها .

كنت أذهب قبل اكتشافى الحالى إلى أن السَّهْبَ الواقع بقرب جبل القانِس بين السيل وذات عِرق هو المكان الذى يحتمل انطباقه على عكاظ أكثر من غيره .

وكانت الروايات مترادفة بأن مكان عكاظ هو المحل المعروف باسم القهاوى عند أعالى مجرى السيل الصغير على بعد ٣٥ كيلو متراً من الطائف .

وكنت أقرأ فى كتب الأدب والجغرافيا عن تعريفات عكاظ المختلفة ، ما يفيد أنه سوق بصحراء عندها صخرات ملساء وبجوارها الفَتْق وهو لبنى نصر والعُبَيْلاء ،

والآن تعرف باسم العبيلاء ، وكل هذه الأوصاف تتساق بكل صراحة للدلالة على المكان الواقع فى طرف ركبة الجنوبى — الشرقى بين أودية شِرب والأخَيضر والعَرْج وبين جبل المبعوث والخلص ، ليس ببعيد عن بلدة الاخَيْضر ، فجاء اكتشافى الحديث مؤيداً لصحة ما ذهبت إليه . وإنى لأرجو أن تتيح لى الظروف فرصة لاخراج رسالتى عن عكاظ علّها تكون أساساً محدّداً لموقع سوقه يبنى عليه فى المستقبل .

٣ — فى آبار القرشية

تبعد القرشية عن الطائف ٥٥ كيلو متراً . وهى آبار فى مجرى شَعِيب شِرب قبل أن يغيب فى ركبة عند الخاش ، تقع إلى الجنوب الغربى من ركبة ، وتقع عُشَيْرة إلى شمالها ، والمسافة بينهما قصيرة ، والمتّجه من مكة المكرمة إلى الخرمة لا يطأ آبار القُرَشِيَّة بل يمرّ على عُشَيْرة ومنها إلى رُكْبة فبريم رأساً ، وأما المسافر من الطائف إلى الخرمة فلا بد له — قبل الدخول فى رُكْبة — من التزوّد بالماء من القرشية ، إذ لا يصادف بئراً أخرى قبل بُرَيْم على بعد ٩١ كيلو متراً منها .

كانت درجة الحرارة حينما وصلنا القرشية ليلا ٢٠ عشرين ، فلما أفقنا عند الفجر هبطت إلى عشر .

مشينا من القرشية حوالى الساعة الثامنة صباحاً ، وأركبنا معنا الدليل الشيبانى ليدلى إلينا بمعلوماته عن ركبة ، وهى دِيرة لعتيبة كما هو معلوم ، وقسنا الاتجاهات المختلفة من القرشية لتعيين موقعها بالدقة فإذا هى واقعة فى مكان مشرف على عدة جبال بارزة فى أطراف ركبة هى :

١ — وَقِير . ٢ — الوَقِيرات . ٣ — الخلص . ٤ — الكلّيّة ، ثم أمامنا سهل ركبة المنبسط .

كان الشيبانى خفيف الروح دقيق الملاحظة ، رفع عقيرته — عقب تحرك السيارة — منشداً أغنية بدويّة فى مدح السيارة ومقارنتها بالذلول والفرق بين سرعة الاثنتين :

ركبت فى موتر[١] يوضى[٢] بلماعه يهوضنى عن النضى[٣] سلسات الاقران
ممشاة عيس النضى يومين له ساعة وإذا يرا كبه يخبّر بالمريبان
راكبه اللى[٤] مايفديه[٥] الدليله غير من رأس العمود القضبان[٦]

البدوى كالبعير قد يكون أليفاً وقد يكون شروداً ، وقد يكون ظريفاً حاضر البديهة خفيف الظل أو يكون كسائر البدو جفاة عراة حفاة . ويشترك البدو فى غريزة الخوف من القوى والحذر من المجهول ، والطمع الشديد ، وكثرة السؤال والاستيضاح دون أن يمكن البدوى مخاطبه من أخذ أخباره وكشف أسراره ، وقد اجتمعت فى صاحبنا أوصاف البدو العامة ، ولكنه كان من القسم المقبول المستساغ .

أما من حيث المعلومات عن أحوال ديرته فكان سيبويه عصره ، وأصمعى مصره ، عرف بقاع الأرض رقعة رقعة ، وخبرها من طفولته شبراً شبراً ، وجاس مفاوزها ، وسبر غورها ومجاهلها ، ورأى ليلها ونهارها ، وجرّب صيفها وشتاءها ، وعرف الشجر والعشب والنبات ، وعرف على الإجمال كل ماله اتصال بحياته اليومية منها

سألته عن أمر ما استطعت حلّه منذ سنوات ، فحلّ لى الإشكال بكلمتين ، وكشف المغطّى بدون أقل عناء . كنت أخلط بين شجر السَّلَم والسَّمُر والطَّلْح ، وكلّها من فصيلة « الأكاسيا » البرّية ، وتتشابه جذوعها وسوقها وأغصانها وأوراقها وأزهارها تشابهاً عجيباً ، فلما سألته عن الفوارق بينها أجاب على البديهة : « تُفرّق بشوكها ، فشوك السَّلَم دقيق وشوك السَّمر أكبر قليلا وشوك الطَّلْح أكبرها » . بوركت أيها الشيبانى ، وزادك الله علماً يا راعى الجميلة ، لقد حللت لى معضلة عالجتها كثيراً وفشلت فى معرفة كنهها ، فكنت فى نظرى سيد العارفين و إمام النباتيين .

٤ — سهل رُكْبة

رُكْبة ، اسم يطلق على سهل فسيح من الأرض المنبسطة يبلغ طوله زهاء مائة

---

(١) سيارة (٢) يضىء (٣) الذلول : السهلة القيادة (٤) الذى (٥) يكفيه
(٦) عمود القيادة فى السيارة

كيلومتر وعرضه أقل من ذلك بقليل ، وهى محصورة بين هضاب ومرتفعات جبال الحجاز عند المبعوث والوَقِيرات من الجنوب ، وحَضَن وما اتصل به من الجبال المتجهة من الجنوب إلى الشمال من جهة المشرق ، والحرّة المسماة بحرّة البس من جهة الغرب ، وأما من جهة الشمال فإنها تنتهى عند الهضاب الواقعة بين بُرَيْم والحُلَمَة والمُوَيْه ودحروج وسَيْسَد والأَشْفيَان وجبال المويه .

وركبة من أهم المراعى لقبيلة عتيبة ، ويكثر فيها العشب والشجر ، وأهم شجرها السَّمرة وفيها أيضاً الطَّلْح والوَهْط والسَّرْح ، غير أن الأول أعمها وأكثرها . وأما أعشابها فالعراد والخصاب والعِجْلة والنِّصِى والثُّمام والهِلْتَة والقَطْف . وشاهدنا قليلا من نبات الحنظل والسنا والعشرق .

ويكثر الظبى الأشهب فى ركبة ، ولكنه شرع فى هجرها منذ إدخال طريقة صيده بالسيارات . وقد كان من قبل يفر من الجبال إلى السهل ، فانعكست الآية الآن وأصبح فراره من السهل إلى الجبل حذراً من السيارات . ومع أن ما صيد منه خلال السنوات الأخيرة يبلغ الآلاف فما زالت قطعانه كثيرة جداً .

ومياه ركبة قليلة ، وليس فيها بئر واحدة برغم خصب أرضها وإحاطة الجبال المرتفعة بمنطقتها ، والآبار توجد فى أطرافها من سائر الجهات ، وأهم هذه الآبار

١ — عشيرة ، ٢ — القرشية ، ٣ — ساميودة ، ٤ — بريم ، ٥ — صِلِّبَة ، ٦ — حراضة ، ٧ — البُديّعة .

ومع أن الجبال محيطة بركبة من سائر جنباتها كما مر بك ، فإن من توسطها لا يشاهد إلا أفقاً مترامياً لا يعلوه أثر مرتفع كالسائر فى اليم لا يرى إلا السماء والماء ، ولذلك فإنها مخيفة ويخشى من التيه فيها ما لم يكن الإنسان عارفاً بمداخلها ومخارجها .

ذكرنا أن جبل حَضَن[1] يقع إلى الشرق من ركبة ويحدها من الفيافى الشرقية الواقعة إلى جهات عرق سبيع ووادى الدواسر ، ولكن هناك سلسلة من الهضاب

(١) يروى فى الحديث : (من رأى حضناً فقد أنجد) .

القليلة الارتفاع تقع بين ركبة وحضن ، وتعرف باسم البرقان نظراً لبياضها واختلاف لونها عن لون حضن الأسود .

وقد سمى لنا الدليل عدداً غير قليل من الأبارق والجبال ذوات الأشكال العجيبة المخروطية أو الهرمية أو المسنمة . وتنتهى ركبة من جهة الشمال على طريق الذاهب إلى بريم عند أبرق النوار على بعد ٦٢ كيلومتراً من القرشية . وأما الجبال التى يمر بها المسافر بعد أبرق النوار فهى دحروج الأيمن ثم النميلاء ثم دحروج الأيسر لوقوعه عن يسار الطريق ثم عدامان وعدامة ثم سيسد و يدخل بعد ذلك فى منطقة حضن وما جاورها ، وهو ما سنصفه فى موضع آخر .

حينما مشينا من القرشية كانت الأرض أرض العراد والسمر ، و بعد مسير ٣٦ كيلومتراً قل العراد والسمر وكثر الخطاب والعجلة ، و بعد خمسة كيلومترات أخرى عاد السمر والعراد يخالطه شجر الوهط ، وكلما توجهنا شمالا بشرق ظهرت لنا قمم جبل حضن السوداء مستعرضاً من الجنوب إلى الشمال ، و بينها و بين ركبة البرقان .

فإذا سارت السيارة ستة كيلومترات بعد أبرق النوار أى ٦٨ كيلومتراً من القرشية بدأت أرض كأنها حبال من الحصباء السوداء بينها خبب ، ويكون هنا بدء الانحدار قليلا . ثم نصادف صخوراً ابتدائية تشبه الصخور الرسو بية ، ثم حصباء مرة أخرى لمسافة بضعة كيلومترات حتى ندخل بين الجبال حيث يكون دحروج الأيسر على بعد حوالى ٣٠٠ متر عن الطريق . وتمر الطريق فى نقطة بين جبل البرما الذى هو منتهى جبل حضن من الشمال و بين جبل البتيلة . و بعد مسيرة خمسة كيلومترات تصبح الطريق محصورة بين الجبال التى ذكرناها من قبل وهى النميلاء على اليمين وعدامة على اليسار وسيسد إلى الوراء ؛ و بعد مسيرة بضعة كيلومترات أخرى فى أرض متحولة من رخوة إلى حصباء إلى حرة إلى رملية ، تتغير استقامة الطريق من الاتجاه الشمالى الشرقى إلى الشرق تماماً ، ثم تميل إلى الجنوب الشرقى بعد أن تدور حول خشم جبل البرما فتصل إلى آبار بريم الثلاث .

الفصل الثالث

ديار البقوم وسبيع

الطريق إلى الخرما — البقوم — وادى تربة ووادى سبيع — قبيلة سبيع

١ — الطريق إلى الخرما

تبعد الخرما عن آبار بريم ٦٦ كيلومتراً ، وتسير الطريق فى استقامة شمالية حتى تصل حرة الرحيان بعد كيلومترين تقريباً ، وليست هى من الحرار العظيمة ، بل هى عبارة عن جبلين من الحجارة السوداء بينهما خُبة ، ويبلغ طول الطريق وسط الحرة حوالى الخمسة كيلومترات .

ثم تعتدل الطريق بعدد الحرة وتسير فى أرض سهلة متموجة ذات قاع صلب الظاهر رخو الباطن مسافة ١٦ كيلومتراً ، ثم يعترضها واد مشهور يسمى « وادى القطان » ، وهو الحد الفاصل بين ديرة البقوم أى حضن وتوابعه وبين ديرة سبيع ، ويبعد عن البريم ٢٣ كيلومتراً ؛ والوادى المذكور مجتمع المياه المنحدرة من حضن الشمالى ، وتصب فيه شِعبان كثيرة ، ثم يمتد مسافات بعيدة إلى أن يغور بقرب جبل الأشفيان . وعلى بعد ٣٠ كيلومتر من وادى قطان تصل الطريق إلى سبخة جفجف ، وحينما يكون المسافر فى منتصفها يشاهد إلى اليمين حرة الكلبة وهى قسم من البقوم .

بعد أن قطعنا بريم ، أصبحت خبرة دليلنا محدودة ، فهو برقاوى عتيبى ، والأرض من البريم إلى الخرما ملك للبقوم وسبيع ، وهم أعداء عتيبة وكانوا معهم قوماً [1] ولم يكن يتسنى لهذا الدليل قبل حكم ابن سعود أن يظعن بمواشيه إلى هذه الديرة ، ولذلك بدلناه بغيره فى الخرما .

---

(١) قوم : أعداء

٢ — البقوم

ينتسب البقوم إلى الأزْد ، وهم — بادية وحاضرة — أهل قوة وبأس . جبلهم المنيع حضن ، ومركزهم بلدة « تربة » والقرى التابعة لها . ومُحاربتهم يبلغون الألف أو يزيدون ، غير أنهم صمدوا لجيرانهم من عتيبة وسبيع وقحطان وثبتوا على حربهم ، وهم إلى عتيبة أميل وأقرب ، وتنقسم القبيلة إلى خمس بدائد : ١ — المرازيق ، ٢ — المورکة ، ٣ — الكُلَيْبَة ، ٤ — الرواجح ، ٥ — الفواصل .

ومن البقوم حاضرة استقروا فى بعض بلدان نجد مثل قرية القصب التى يسكنها آل زاحم ؛ ومثل عائلات آل سُوَيْد وآل غدير وآل فائز وآل عوجان .

قلنا إن البقوم كانوا أعداء سبيع وكانوا يتنازعون على المراعى والموارد ، ولكن ابن سعود ألف بين قلوبهم ووحد كلمتهم . فلما تنازع أهل الخرما من سبيع مع أشراف مكة المكرمة وقف البقوم أهل تربة إلى جانبهم وحاربوا معهم جنباً إلى جنب . والمعركة الشهيرة بين الإخوان وقوات الأشراف إنما وقعت فى تربة التى هى مركز البقوم . وليست للبقوم إمارة قائمة بذاتها مثل سبيع ، بل إن أميرهم يعينه ابن سعود من رجاله ، وسنأتى على طرف من أخبارهم فى موضع قريب .

٣ — وادى تربة

وادى تربة أو وادى سبيع هو أحد الأودية الرئيسية الستة التى تتجمع فيها مياه الشعبان والسيول المتكونة من الأمطار التى تهطل على السفوح الشرقية لسلسلة جبال السراة ضمن حدود المملكة العربية السعودية وأقربها إلى الشمال [1] .

وينشأ هذا الوادى من أطراف جبل حضن الجنوبية وما جاوره من السلاسل والهضاب ، ويسير فى ديرة البقوم مسافة طويلة حيث تقوم على جانبيه بلدان البقوم

---

(١) الأودية الستة اعتبارا من الشمال إلى الجنوب هى : ١ — وادى تربة ، ٢ — وادى رنية ، ٣ — وادى بيشة ، ٤ — وادى تثليث ، ٥ — وادى حبونة ، ٦ — وادى نجران . وسيرد ذكر هذه الأودية مفصلا فى مختلف أقسام الكتاب .

التى أهمها تربة المشهورة بواقعتها الحربية عام ١٩١٩ بين الإخوان والأشراف مما سنذكره فى موضعه القريب . وحينما يصل الوادى إلى المكان المسمى « الغريض » على بعد ٦ ساعات للمطية من الخرما ، تكون حدود البقوم من جهة الجنوب الغربى قد انتهت ، وتبدأ حينئذ حدود سبيع عند المروة المجاورة للغريض ، كما تبدأ هذه الحدود من الناحية الأخرى عند وادى قطان المار ذكره . وهذه أسماء القرى الهامة والموارد الشهيرة الواقعة على أطراف الوادى اعتباراً من دخوله ديرة سبيع

١ — الغريض .

٢ — القرين : وهى عين ماء وقعت بجوارها معركة حامية بين الإخوان والشريف شاكر .

٣ — حوقان : وهو مجمع مياه ونخيل وقصور .

٤ — الخرما : وهى أكبر بلدان سبيع على الوادى ، وتقع على ضفته الغربية ، وتتألف البلدة من قسمين : أولهما الخرما القديمة أو القصر العتيق ، وثانيهما هجرة خالد بن لؤى التى أنشأها فى الحرب العامة .

٥ — الدَّبَيْلة : ماء ونخيل .

٦ — الدُّغَيْمة : على ضفة الوادى اليمنى .

٧ — السَّلَمِيَّة : على الضفة اليسرى .

٨ — الوطَاة .

٩ — أبو جُمَيْدة .

١٠ — الحِنُو ، وهو ماء لا نخيل فيه ، وقعت فيه معركة عظيمة بين الإخوان والشريف شاكر .

١١ — الشَّف ، والحَنْفا ، والقنصلية ، وكلها مياه على الوادى ولا نخيل فيها .

وينتهى الوادى فى عرق سبيع ويغور فى رماله ، ويمكن اجتياز المسافة من الغريض فى أعلى حدود سبيع على الوادى إلى العرق فى أربعة أيام على المطية .

ويمكن تخمين طول الوادى من علوّه إلى مصبّه بمسافة مائة وعشرين كيلومتراً .

٤ — قبيلة سبيع

تقيم قبيلة سبيع فى الوادى المعروف باسمها (وادى تربة) وفى وادى رنية ، وفى أطراف حرّة سبيع وعرق سبيع ، وهى من أهمّ القبائل فى هذه الجهة ، ولها قسم آخر يقيم فى العارض المحسوب بادية لنجـد ، كما أن كثيرين من سبيع قد تحضّروا وسكنوا قرى نجد .

ويحيط بقبيلة سبيع فى ديرتها قبيلة عتيبة من الشمال والشمال الغربى ، والبقوم من الغرب والجنوب الغربى ، وقبائل الحجاز و بيشة وغامد وزهران وأكلَب من الجنوب ، والدواسر وقحطان من الشرق .

ويحدّهم عن ديرة عتيبة مفيض وادى قطان عند الخنفرية وخشوم الرَّحَى وشَعِيب خَنْشَل من جهة الشمال ، وماء الأَيْسَرِى الواقع بقرب خشم عرق سبيع من الشرق. ويحدّهم عن ديرة قبائل بيشة أرض الذّهاب التى تبعد عن رَنْية مسافة ٦٥ كيلو متراً إلى الجنوب .

ومركز سبيع بلدتان هامتان الخُرما فى الشمال ، ورَنْية فى الجنوب . وللقبيلة فروع وأقسام متعددة نذكرها فيما يلى :

أولاً — الذين فى الخُرما من سبيع :

القَمْلة ، فى السَّلَمِيَّة

العَجْرِيَّة ، فى الخرما

بنو كور ، فى الخرما

القريشات ، فى الخرما

ثانياً — الذين فى رنية من سبيع[1] :

---

(١) أما الذين فى نجد من سبيع فهم :

أولا — بنو عمرو ومنهم (١) الخضران وأقسامهم العملة والجبور والنبطة والعرينات .

(٢) الصعبة وأقسامهم الجمالين وآل على وآل عزة .

ثانياً — بنوعاصم ومنهم القدقة والعبادين والصيافة والقدعة وبنوحمد .

المكاحلة	آل محمد
الصنادلة	الرُّوبة
المشاعبة	السودة
المفالحة	الفراعنة
الجهوم	الشُّمَيْسَات
الملوح	المَرَاغين
المجامعة	الوِزْرَان

ولكل فريق من هؤلاء كبير ، غير أن الذين فى الخرما يتبعون أميراً من الأشراف العبادل هو ابن لؤى ، والذين فى رنية يتبعون شريفاً آخر من العبادل أيضاً هو ابن صامل .

وقد كان السبعان — قبل حكم ابن سعود وامتداد حركة الإخوان إليهم — معادين لجميع جيرانهم من الرُّوقة وبَرْقة من عتيبة والدواسر وقحطان وأكْلَب والبقُوم ، ولكن حركة التدين شملتهم قبل غيرهم ، فتآخوا مع البقوم ، وقاوموا عتيبة التى كان أكثرها مواليًا للأشراف فى مكة المكرمة ، ووقعت بينهم وقائع عظيمة سنذكرها فى موضعها إن شاء الله .

الفصل الرابع

تربة والخرما

الأشراف والاخوان — مقدمات تربة — الوقائع قبل تربة — معركة تربة — وقائع ووقائع

١ — الأشراف والإخوان

يطلق على النزاع الذى قام فى أعقاب الحرب العامة بين البقوم وسبيع وأحلافهم من أهل نجد و بين حكومة الأشراف فى الحجاز اسم «النزاع بين الأشراف والإخوان» بالرغم من أن رؤساء الاختلاف فى الجانبين كانوا من الأشراف العبادل الملك حسين وحكومته من ناحية الحجاز ، والشريف خالد بن لؤى وأتباعه من سبيع والبقوم من ناحية نجد . وقد تطوّر هذا النزاع من نزاع محلّى بسيط إلى خلاف شديد بين الإخوان والأشراف ، ثمّ إلى حرب شعواء بين نجد والحجاز كان من نتيجتها إقصاء العائلة الهاشمية عن حكم الحجاز وانضمام الحجاز إلى المملكة العربية السعودية .

نشأ النزاع عن محاولة الشريف حسين بن على أمير مكة المكرمة أن يبسط سلطته ونفوذه على بلاد عتيبة وحرب عام ١٩١٠ على أثر تولّيه شرافة مكة ، وعن اصطدامه بالحيوية الجديدة التى بعثها ابن سعود فى عقائد أهل نجد وفى معايشهم بنشره تعاليم الإسلام الصحيح ، وقضائه على الخرافات والأوهام المسيطرة على أفهام الناس وحلومهم منذ أجيال . ويمكن إرجاع أسباب النزاع الحقيقية إلى عاملين جوهريين : الأول دينى ، والآخر سياسى

أما العامل الدينى فهو أن السبعان والبقوم كانوا قد أطاعوا داعى التوحيد أيام آل سعود الأولين ، ونشأت بينهم و بين أهل نجد صلات ودّ لم تذهبها الأيام بعد أن عصفت الأرزاء بحكومة آل سعود الأولى ، فما قام عبد العزيز بن سعود بدعوته السلفية قبل الحرب العامة ببضع سنوات حتى أجابها عدد غير قليل من هاتين

القبيلتين ، وكان من نتيجة ذلك تولّد أسباب الاحتكاك مع جيرانهم المحافظين على جاهليتهم ، ونشوء حزازات ومطامع أدت إلى اكتساب الأمر شكلا سياسياً خطيراً بين مكة والرياض كما هو معلوم . والحقيقة أنه يصعب تعيين مدى تأثير كل من العاملين أو تعيين المتقدّم منهما . فمحاولة الأشراف توسيع حدودهم من الحجاز إلى قلب نجد عام ١٩١٠ كان العامل السياسى الأول والأخير فيما وقع ، ثمّ إن نهوض ابن سعود بأمر الدعوة الدينية الخالصة فى نجد وإقبال البادية على اعتناق هذه الدعوة وامتداد نفوذها إلى قبائل الحجاز كان العامل الدينى السياسى الذى خشى الأشراف شرّه وحاولوا صدّه ووقفه .

أسرف الأقدمون فى التساهل فى تحديد الحجاز ونجد ، وأين مبتدأ كل منهما وأين منتهاه ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح فى إمكان أى حاكم قوىّ أن يدّعى تبعيّة هذا القسم أو ذاك من البلاد للحجاز أو لنجد . ويروى فى الحديث الشريف أن حدود الحجاز تنتهى حينما يشاهد جبل حَضَن ، وعلى هذا التقدير يمكن اعتبار عُشَيْرة وأطرافها حداً طبيعياً فاصلا للحجاز عن نجد ، غير أنّ الشريف حسين لم يقنع بذلك ، فادّعى تبعية عُتَيْبة وحَرْب للحجاز على أمل الوصول من وراء ذلك إلى توسيع دائرة نفوذه وسلطانه على القصيم ونجد ، ووضعته محاولته هذه فى موقف التحدى لنجد ولأميرها على السواء ، وقد تفاءل الشريف حسين بما أصابه من نجاح أوصله فى هجومه على نجد عام ١٩١٠ حتى القاعِيَّة وخُفّ عند نفُود السرّ ، فشرع يعدّ عدّته لبسط نفوذه الكامل الشامل . وديار البقوم وسبيع واقعة بين نجد والحجاز ، فأذن ليبدأن بها ولتكونن مفتاح النصر والظفر .

رجع الشريف حسين إلى التاريخ فوجد فى بعض مادته ما حمله على الاعتقاد بأن فى استطاعته الاستيلاء على بلاد البقوم وسبيع ، دون أن يحسب للعوامل الأخرى حسابها ، فاصطدم بإرادة الأهالى أنفسهم وبمصالح جوهرية للقائمين بأمرهم ، فثار العجاج واشتد اللجاج ، ولم تغنه قرابته من أمير الحرما ولا علاقة مكة التاريخية بالأشراف العبادل فتيلا .

٢ — مقدمات ثورة

اطلعت على رسالة بالإنجليزية وضعها المكتب العربي بالقاهرة عام ١٩١٩ لإطلاع الحكومة البريطانية على مقدّمات ثورة وتفاصيل حوادثها وقت اشتداد الأزمة ، فرأيت أن أسرد خلاصتها فيما يلي :

١ — في ٢٤ أكتوبر ١٩١٨ ذكر الملك حسين للكولونيل ولسن المعتمد البريطاني بجدة أنّ أمراء الخرما من الأشراف كانوا تابعين لمكة وكانوا يعينون من قبل الشريف ، وأنه (أي الحسين) عزل أربعة أو خمسة منهم ، وأنه بعد وفاة منصور بن لؤي والد خالد عيّن أخاه عوضاً عنه ، ولكنه بعد سنتين أصيب بمرض عضال قضى عليه ، فعيّن خالد بن منصور بن لؤي وكيلا للأمير .

٢ — في ديسمبر ١٩١٧ ذكر الأمير عبد الله للكولونيل كورنواليس أنه — في الحقيقة — لم يحاول أحد من أشراف مكة بعد الشريف عبد الله بن محمد بن عون (المتوفى ١٨٧٧) أن يسيطر على بلاد عتيبة إلى أن تولّى والده الحسين شرافة مكة . وذكر أيضاً أن مجازفة والده كانت سبباً في استياء ابن سعود وتحرشاته . وقد كتب الحسين لابن سعود بأن عتيبة وحرباً تابعون للحجاز ، فلم يوافق ابن سعود على ذلك ، غير أنه وافق على ذلك وعلى دفع ضريبة معيّنة للحجاز أيضاً بموجب معاهدة ١٩١٠ حين غزا الحسين نجدا .

٣ — وفي يناير ١٩١٨ جرى حديث بين الكومندر هوغارث والملك حسين بجدة ، كان رأي الملك حسين فيه خلاف رأي ابنه الأمير عبد الله ، فذكر أن معاهدة ١٩١٠ أصبحت ساقطة لا قيمة لها . وزاد على ذلك أن حقيقة الواقع هي كون الأمير سعد بن عبد الرحمن تعهد بأن تعفى حرب وعتيبة وسبيع ومطير من دفع الزكاة لابن سعود أو لابن رشيد ، وبأن تطلق الحرية لمدن القصيم لاختيار أمرائها وأن يدفع للحجاز مبلغ ٣٠٠٠ ريال في السنة ، وأنه برغم هذا الشرط فإن المبلغ لم يدفع قطعياً ، وذكر الملك أنه اعترف لابن سعود بحقه على عتيبة حينما يكونون في بلاده .

٤ — وفى فبراير سنة ١٩١٧ ذكر الأمير فيصل (الملك فيصل) للكولونيل لورنس أنه منذ نحو خمس سنوات شرع ابن سعود فى خطته العدائية تجاه مكة ، فاستمال إلى جانبه بعض البقوم وسبيع وهدّد الطائف ، فاضطر الشريف إلى اتخاذ تدابير زجرية ، فأرسل ابن سعود أخاه سعداً ليتلافى المسائل ، فتمّ الاتفاق على أن يكون وادى الدواسر إلى النقطة التى يصبح اسمه فيها وادى رنية تابعاً لابن سعود ، وأن تكون أودية الخرما و بيشة ورنية للشريف ، واعترف الشريف بإمارة ابن سعود على قحطان ، كما اعترف ابن سعود بإمارة الشريف على عتيبة [1] . وفى عام ١٩١٢ عاد النشاط لابن سعود فاضطر الشريف إلى إرسال ولده عبد الله إلى ديار عتيبة فبلغ حداً لم يبلغه الأشراف من قبل من جهة الشرق .

٥ — وفى ٢٩ مارس ١٩١٩ كتب الشريف حسين إلى المعتمد البريطانى بجدة كتاباً برقم ١١٠٧ قال فيه : « نحب أن نوضح لكم أننا بذكرنا الرّوقة فقط فى الخريطة التى وضعتها لولسن باشا لأجل إراءته قسما من المملكة العربية الهاشمية ، لم نكن نقصد مطلقا أن الخرما وتربة ورنية و بيشة والدواسر غير تابعة للعاصمة (يعنى مكة) لأنه حتى هذه الساعة نحن الذين نعين أمراءها ونجبى زكاتهم وجهادهم يرسل إلينا ، وأنا الذى عينت خالدا أميراً على الخرما وعزلت الشريف محمد بن سلطان من بيشة ، وضممتها إلى خالد [2] .

٦ — أما رأى ابن سعود الذى أدلى به للشريف حسين وللحكومة البريطانية فهو أنه لايوجد أساس لمدعيات الشريف حسين بشأن تربة والخرما ؛ فضلا عن المدعيات بشأن ديار عتيبة فى نجد ، وأن حدود الحجاز من جهة الشرق تنتهى بقرب وادى العقيق (عُشَيْرَة) عملا بالحديث الشريف و بالتعامل الجارى بين العرب ، وأنه لم يسلم قط بأن للشريف أى حق على نجد أو قبائلها ، وأنه لا يوجد ما يبرّر سياسته

---

(١) لاشك فى أن الذى نقل الكلام عن لسان الملك فيصل كان يجهل أوضاع الأودية المذكورة فجاء الكلام غير مستقيم كما يرى .

(٢) فى هذا الكتاب مطلب صعب جداً بشأن وادى الدواسر لايسلم به أهل نجد .

القهرية ضد أهل الخرما وأهل الوديان على الإجمال لاعرفا ولا تاريخا ، ولا من حيث الدين ، وأن أهل الوديان يحسبون من أهل نجد ، وأن إرادتهم وميلهم هما الأساس فى حل الخلاف ، ولا يوجد بينهم من يريد الشريف أو حكومته .

وقد عجزت أساليب السياسة والتحكيم عن حل الإشكال ، فأهل الخرما وأتباعهم لم يقبلوا الشريف ولا حكومته وطلبوا الإمداد والنجدة من الإمام ابن سعود فى الرياض ومن كافة الإخوان فى نجد ، وحكومة مكة أصرت على خلع « خالد » وضم بلاده للحجاز فلم يكن بدّ — والحالة هذه — من نشوب القتال واستعار لهيبه بين الفريقين .

٣ — الوقائع قبل تربة

لم يعلن أهل (الخرما) خلع نير حكم الشريف فى مكة إلا عقب إعلان الحرب العالمية وقيام الشريف حسين بالنهضة العربية . وقد اشترك الشريف خالد بن لؤى أمير الخرما فى حركات الحرب الأولى حول المدينة ، ولكنه كان يرى نفسه مضطراً إلى مجاراة أهل ديرته فيما هم عليه من اتباع أهل نجد والسير على خطتهم ، وكان يرى رأيا مخالفاً لرأى الأشراف فيما يتعلق ببعض المسائل الاجتهادية . وقد ذُكر لى فى الخرما أنه لم يكن موافقا على قصر الصلاة بدعوى إعلان الجهاد وغير ذلك من التسهيلات .

عاد « خالد » من عند الأشراف فى الحجاز إلى ديرته ، فوجد الخلاف على أشده ، بين أنصار الفئتين من جماعته ، غير أنه رأى الكفة راجحة بجانب أهل نجد ، فترأس الحركة الجديدة وانضم إليها وجاهر بها ، ثم سافر إلى الرياض وأعلن خضوعه وولاءه ، وطلب « مطوّعا » ليكون مرشداً لأهل الخرما فى شئونهم الدينية ، وقاضياً يفصل فى منازعاتهم ، فأجيب إلى طلبه ، وسلم إليه لواء من ألوية الجهاد . و بعد عودته إلى الخرما أنشأ هجرته التى ذكرناها فيما تقدم من البحث ، وأصبح منذ ذلك الحين عاصيا لحكومة مكة ثائراً عليها ، ووجب على الحكومة أن تؤدبه . غير أن الشريف حسين لم يحاول ذلك فى مطلع الأمر ، ولم يرسل عُمّاله لجمع الزكاة كالمعتاد .

وفى أوائل عام ١٩١٨ أرسل الشريف حسين عماله لجباية الزكاة من سبيع ، فما كان من خالد بن لؤى إلا أن اعتقلهم ومنعهم من القيام بمهمتهم ، ثم جمع قوة من الإخوان طهّرَ بها العناصر المعادية له من أهل الخرما ، وبذلك بدأ النزاع بينه وبين مكة .

وفى شهر مايو من ذلك العام كتب الملك حسين إلى الحكومة البريطانية ملفتاً نظرها إلى أعمال ابن سعود ومداخلاته مع القبائل التى كانت تخضع للحجاز من قديم الزمان ، ومعلناً لها اعتزامه إنفاذ قوة تأديبية إلى الخرما ، وقد أنفذ بالفعل قوة مؤلفة من ١٠٠٠ مقاتل بقيادة الشريف حمود بن زيد ، فالتقى بها الإخوان فى ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٦ هـ (مايو ١٩١٨) فى حَوْقان ، وهزموها وشتتوا شملها .

أعلن الملك حسين فى جريدة (القبلة) أن القوة بلغت هدفها الذى رسمه لها ، ولكنه بالرغم من ذلك أمدها فى شهر يونية بنجدة عسكرية فنية معها عدد من المدافع والرشاشات ، ولا يعلم فى الخارج شىء عما جرى للقوة الأولى ولا للنجدة . والحقيقة أن النجدة وقعت فى كمين نصبه لها الإخوان فى جِبَار فى ١٧ رمضان سنة ١٣٣٦ هـ فقضى على أكثرها .

وقد بلغت الوقائع قبل معركة تربة حوالى عشر كان الفوز فيها دائما حليف الإخوان . أنشدنى بعض أهل الْخُرما شعرا طويلا جديراً بتسميته (ملحمة) للوقائع وتفاصيلها جاء فيه :

قُرَيْن [١] وَحَوْقان [٢] وَحِنْو [٣] مَصَارِعٌ وَجِبَار ليس بجابر للكافرينا

وهذا بيان الوقائع حسبما أملاه علىّ أهل الخرما :

أولاً : وقعة حَوْقان السالفة الذكر فى ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٦ (مايو ١٩١٨) قائد الإخوان فيها خالد بن لؤى ، وقائد جند الشريف حمود بن زيد .

ثانياً : وقعة جِبار فى ١٧ رمضان سنة ١٣٣٦ (يونيو ١٩١٨) القائدان كما

---

(١) و (٢) و (٣) أسماء أماكن .

فى الموقعة الأولى ، ولكن جند الشريف يمتازون بسلاح المدافع والرشاشات .

ثالثاً : وقعة الحِنو ، فى ٩ ذى الحجة سنة ١٣٣٦ هـ (أغسطس ١٩١٨) ، وذلك أنه على أثر انكسار قوات الشريف حمود مرتين كما تقدم ، صدر الأمر للشريف شاكر بن زيد أخيه بأن يتقدم لاحتلال الخرما وديرة عتيبة بصفته أميراً على كافة عتيبة ، فجاء الشريف شاكر وعسكر فى مَرّان إلى الشمال الغربى من الخُرما ، وشرع فى إثارة خواطر عتيبة على سبيع وأهل الخرما . ووفق إلى تأليف غَزْو من المُقَطَة برياسة شُلَيوِيح ، ولكنه مُنِىَ بما منى به الغزوان السابقان . ولم يجد الأمير شاكر بُدًّا من الهجوم بنفسه ، فجمع ما لديه من قوات بدوية وحضرية ، وجهز مدفعيته ورشاشته ، ووصل آبار الحِنو على بعد ٢٥ كيلو متراً إلى الشمال الشرقى من الخُرما ، وكانت قوة الإخوان مؤلفة من ١٥٠٠ رجل من مقاتلة أهل الخرما ووادى سبيع و٥٠٠ مقاتل من أهل العَطْفَط و٢٥٠ من أهل الرَّيْن . وأما قوات الشريف شاكر فإنها كانت مؤلفة من ألف جندى نظامى و٤ مدافع و٦ رشاشات ، ومن غزو العتبان الموالين للأشراف وغزو أهل الطائف من قبائل بنى سعد وهذيل وسفيان وغيرهم ؛ بحيث أن أهل الخُرما كانوا يقدرون مجموع قوات الشريف شاكر بستة آلاف مقاتل .

بدأ الإخوان المعركة بهجومهم الليلى المعلوم ، وصبّحوا القوم « هَجَاداً » من الفجر المبكر ، واشتبكوا معهم فى معركة حامية الوطيس دارت الدائرة فيها على جند الشريف شاكر ، ففرّ ببقية جنده قافلا إلى مرّان على عجل . وكانت حجة الأمير شاكر فى انكساره أن كثيرا من الرُّوَقَة وَبَرْقة انحاز إلى جانب الإخوان قبل أن تدور المعركة وتركوه مع القوة النظامية وغزو ثَقِيف وسعد وهُذَيْل من أهل الطائف ، ولم يكن له قِبَل بمقاومة هجوم الإخوان العنيف .

وهجمت الحوادث بعد الحِنو بضعة أشهر تخللتها هجمات من سرايا الإخوان على القوافل التى كانت تنقل الأرزاق والذخيرة إلى معسكر الأمير شاكر . وكان الأمير عبد الله بن الحسين محاصراً المدينة ، فأراد القدوم بنفسه إلى (الخُرما) غير أن ضرورات الحرب ألجأته إلى التريث خوفا من رد الفعل والانتكاس .

٤ — تربة

(تَرَبَة) بلدة البُقوم كما ذكرنا ؛ وهى واقعة على الوادى المعروف باسمها الذى يصبح اسمه — بعد وصوله إلى الغريض — وادى سبيع ، وهى أصغر من الخُرما ، وأقل سكاناً وأهمية ، إذ كان مركز الثقل السياسى فى النزاع بين الإخوان والأشراف مستقرا فى الخرما ، غير أن شهرة تربة بعد الموقعة الشهيرة التى دارت رحاها فيها فى شعبان سنة ١٣٣٧ (١٩١٩) قد طغت على الخرما وكسفتها .

دارت الوقائع التى سردناها فى النبذة السابقة خلال الحرب العامة ، حين كانت القوات العربية الحجازية محاصرة للأتراك فى المدينة المنورة ، وكان القائم بأمر الحصار حضرة صاحب السمو الأمير عبد الله بن الحسين (ملك شرق الأردن حالا) ، فأراد أن يزحف بقواته على (الخرما) وينهى أمرها عقب واقعة الحِنْو التى دارت فيها الدائرة على جند الأمير شاكر . غير أن الخوف من أن ينتهز فخرى باشا فرصة غيابه ونقص القوات المحاصرة للمدينة فيقوم بحركة خروج قد تمتد إلى أطراف مكة اضطره إلى التريث على مضض .

استعاد الأمير عبد الله حريته فى العمل ضد أهل (الخرما) بعد استلام فخرى باشا فى المدينة فى يناير سنة ١٩١٩ ، وخطا الخطوة الأولى بمغادرته المدينة ، ترافقه القوة الحضرية من جُند الحجاز بمدافعها ورشاشاتها ، تظاهرها القوات البدوية ، وسار من المدينة على الطريق الشرقى ، وعسكر فى أوائل إبريل فى عُشَيْرَة . وقد اختلف الرواة فى عدد القوات الحضرية التى كانت تحت قيادته ، فبعضهم يبالغ فيها ويجعلها آلافا ، وبعضهم على الضد من ذلك يزعم أن عددها لا يتجاوز المئات . أما ضباط الاستخبارات الإنجليزية حينئذ فيقدرون القوة الحضرية بما لا يزيد عن ٦٠ ضابطا و ٧٧٠ صف ضابط وجندى و١٠ مدافع و ٢٠ رشاشة . والواقع أنهم يفوقون هذا العدد .

وما إن بلغ خبر حركة الأمير عبد الله من المدينة مسامع ابن سعود حتى احتج على ذلك وأنذر خصومه بما يجرّه عمل الأمير من النتائج الخطيرة ، وأنه مضطر لمقابلة حركة الملك حسين والأمير عبد الله بمثلها .

بدأ الأمير أعماله العسكرية بإنفاذ السرايا لتأديب القبائل العاصية ، فقابل الإخوان أعماله بمثلها وشرعوا فى شن الغارة على القبائل الموالية له . وكانت الحادثة الأولى فى الدُّغَيْبَجَة فى أوائل مايو ١٩١٩ ، إذ هجم الإخوان على بعض العتبان ونهبوهم ، فأنفد الأمير سريّة تقتفى أثرهم فلم تظفر بهم بل ظفرت بغزو آخر من الإخوان كان قاصداً الهجوم على مخفر شريفىّ يدعى مُدَرْيَح . وفى تلك الأثناء أيضاً هجمت سرية من سرايا الأمير على فريق من الإخوان فى الرُّخَيْم وقضت عليه .

ظعن الأمير بقوّاته من معسكره وخيّم فى البديّع فى سفح حَضَن ، وتوجّه منها إلى تربة . وفى ٢١ مايو ١٩١٩ أعلن احتلاله لتربة بعد معركة دامت ساعتين ونصف ساعة ، وأنه — بعد أن جمع قواته — شرع فى الاستعداد للتقدم على الخرما ، ثم خاطب رؤساء قبائل سبيع والبقوم وأمرهم بتقديم الطاعة والخضوع وهددهم فى حالة عدم الطاعة بسوء المنقلب . غيرأن الأمر لم يدم طويلا ، إذ كان الإخوان يعدون معداتهم لمفاجأة معسكر الأمير فى ذلك اليوم نفسه .

وكان ابن سعود على علم بتدابير حكومة مكة ، وكان — بواسطة جواسيسه — على اتصال وثيق بما يجرى فى مخيم الأمير عبد الله فى عُشَيرة ، ولذلك فإنه لم يؤخذ على غرة حينما سمع بحركة جيوش الأمير من عشيرة فى طريقها إلى وادى سبيع بعد اجتماع الأمير بوالده الحسين والتشاور معه فى الخطة ، بل شرع فى الاستعداد للحرب بأن أنفذ بعض قوات الإخوان من هجرة الغطغط وسواها من هجر عتيبة لتكون إلى جانب أهل الخرما ، كما جهز قوات أهل العارض تحت إمرته وسار بها غرباً وعسكر فى السَّاخَّة شمال شرقى الخرما على بعد أكثر من مائة كيلو متر عنها . وأصدر أمره إلى الإخوان بأن لا يكونوا بادئين فى القتال ولا مهاجمين بل يظلوا صادّين مدافعين .

ولم تكن تربة هدف الأمير الأساسى بل كان يستعد لضرب الإخوان فى الخرما ، ولهذا فإنه ما كاد ينتهى من مسألة تربة حتى شرع فى الاستعداد للتقدم إلى الخرما ، ولكن الإخوان كانوا أسبق إلى لقائه فلم يتركوا له مجالا للوصول إليهم ، إذ لما بلغتهم أنباء هجومه على تربة كانوا فى موقع اسمه القُرَيْن ، وهو ماء على وادى تربة بينها و بين الخرما ، فلم يلبثوا إلا ساعتهم ثم شرعوا فى المسير بعد غروب شمس يوم ٢٥ مايو ١٩١٩ (٢٥ شعبان ١٣٣٧) فوصلوا تربة بعد بضع ساعات دون عناء

الديرة ديرة الإخوان ، فهم يخبرونها شبراً شبرا ويعرفون سهلها وجبلها وحزمها وشعيبها ونخيلها ومزارعها و بيوتها وقصورها ، فلم يحتاجوا إلى كبير عناء لمعرفة ما يجب عليهم عمله حين مباغتة جند الأمير بهجوم مفاجىء .

رتب الإخوان أنفسهم رتباً وفرقا ، وتولى كل فريق أمر فريق معين من جند الأمير النظامى والبدوى ، وكانت جواسيس الإخوان وعيونهم قد عرفت مواقع الجند ومنازلهم وعدد من فيها بالتقريب ، واستعانوا بالرحمن فى هجومهم الليلى الذى اشتهروا به والذى يلقى الرعب فى قلوب خصومهم ، وحملوا حملة صـــادقة مكبرين مهللين .

ولم يكن الأمير متوقعاً هجوماً سريعاً كهذا ، وظن أن احتلاله لتربة قد ألقى الرعب فى قلوب الإخوان وأحلافهم ، بل ظن أنهم لا يجرءون على الوقوف فى وجهه فضلا عن الهجوم عليه . ولذلك نام ونام جنده ، وهو خالى الذهن مطمئن البال .

وأفاق الجند كما أفاق الأمير على أصوات الإخوان مهللين مكبرين ، وقد عقد الذعر سرادقه فوقهم ، فعجزوا عن استجماع قوتهم للمقاومة ، وفر كثيرون تاركين أسلحتهم و بنادقهم دون أن يلووا على شىء ، وتمكن الأمير من امتطاء فرس له قريبة منه ، وعاد أدراجه من الطريق التى جاء منها منذ أيام ، ولم يقف إلا عند الأُخَيْضِر

تحسب معركة تربة من أشد المعارك الحربية الفاصلة فى تاريخ جزيرة العرب الحديث . وستظل ذكراها عالقة بالأذهان كلما ذكر اسم تربة والإخوان ، إذ قد

ملك واحد ، فتحيا حياة واحدة ، ويكون من اتحادها عزّ وعظمة ، ومبدأ وحدة عامة شاملة بإذن الله .

٥ — وقائع ووقائع

بعد معركة تربة ، اشتدت العداوة بين الإخوان والقبائل الموالية للأشراف فى الحجاز من حَضَن إلى قرب عُسَيْرة والطائف ، وكان القسط الأكبر من عبء الهجوم والدفاع واقعاً على عاتق أهل تربة والخرما من سبيع والبقوم نظراً لقرب ديارهم وكونهم أول من قام بالدعوة فى غرب نجد ، فكثرت الوقائع وتعددت السرايا من الجانبين على غير جدوى . وكان للأشراف مخفران فى كُلَاخ والأُخَيْضر ، ولكن الإخوان كانوا يتعدونهما إلى جوار الطائف فيصولون ويجولون ، وينهبون ويقتلون ، ويد حكومة الشريف قاصرة عنهم .

فمن الوقائع الهامة وقعة قريش على الأخيضر فى أواخر عام ١٣٣٧ (١٩١٩) ، فقد أغار الإخوان على قبيلة قريش وأحلافها ، واستاقوا كثيراً من الحلال والمال ، وعادوا إلى ديارهم سالمين .

وفى عام ١٣٤٠ وقعت وقعة الخرانق ، وفيها قتل عبد المحسن بن خالد ابن لؤى .

وأهم الوقائع على الإطلاق هى التى وقعت فى مطلع صفر ١٣٤٣ (١٩٢٤) حينما زحف الإخوان تحت إمرة خالد بن لؤى على رأس جماعته أهل تربة والخرما من سبيع والبقوم ، وأحلافهم من عتيبة (برقة والروقة) بقيادة سلطان بن بِجَاد كبير هجرة الغَطْغَط ، وتقدموا من الخرما إلى كلاخ ثم الأخيضر ، حيث جرت موقعة كبيرة لم تحل دون إحداقهم بالطائف وحصاره ، ثم الاستيلاء عليه وضمه إلى أملاك ابن سعود .

سار الفاتحون من أهل الوديان بعد الطائف إلى الهدى ، وتقدموا إلى الزيمة فمكة المكرمة ، ودخلوها محرمين ملبين . فأصبح الثائر العاصي فاتحاً ظافراً ، والشريد الطريد أصبح أميراً حاكماً . وهذا من عبر الزمان وتقلباته .

لو علم الشريف حسين أن ابن عمه خالد بن لؤى سيكون سبباً لثلّ عرشه لما عينه أميراً على الخرما ، ولو اطلع على لوح القدر لما أقدم على ما أقدم عليه من مناوأة أهل الخرما ومحاولة الاستيلاء عليهم بالقوة .

ولكن (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء) .

الفصل الخامس

وادى رنيـــة

المسير من الخرما — صفة الطريق — رنية — الوادى من علوه إلى مصبه

١ — المسير من الخرما

كان مسيرنا فى أوقات قلقة غير عادية ، إذ كنا نشاهد فى طريقنا كتائب المجاهدين سائرة الهوينى ، فنسألها حين نمر بها عن أخبارها . أما فى الخرما فقد قابلنا غزو الرُّوقة من عتيبة بقيادة الأمير عمر بن ربيعان . كان سير الغزاة بطيئاً بسبب إبلهم وخيلهم ، أما الإبل فكانت تقضى ضعف الوقت اللازم لاجتياز المسافات بسبب ضعفها وندرة الكلأ على جانبى الطريق ، وأما الخيل المُجَنَّبة فكانت على وشك الوضع ، فلم يكن بد من السير على مهل .

تقابلنا مع الأمير عمر وأبناء عمه ، وتباحثنا فى الموقف مع اليمن ، وكانت ذهنية المحاربين غريبة فى بابها ، وهى تدل على شىء كنا جميعاً نلمسه فى علاقاتنا مع جارتنا الشقيقة حكومة اليمن ، ذلك الشىء هو السياسة المقنعة غير الواضحة وسياسة المطل من جانب اليمن ، وقد قاسى الإخوان بسبب ذلك مشقات كثيرة . فإنهم سيقوا إلى الحدود عدة مرات ، ولكنهم كانوا يرجعون فى كل مرة بدون قتال ، وما يكادون يصلون إلى أوطانهم حتى يناديهم منادى الغزو وداعى الحرب أن عودوا إلى الحدود اليمانية . فسئموا هذه الحال ، ورأوا أن لا بد من حل المشكلة حلا نهائياً ، إما بالصلح الشريف المرضى وإما بالحرب ، وليس ذلك عن رغبة فى الحرب من حيث هى ، بل عن نفرة من ترك الأمور على غوارب بها ، فتضطر الحكومتان فى كل وقت وحين إلى إنفاذ السرايا والبعوث . ومن أجل ذلك قال لى ابن ربيعان : « إن لم يكن الصلح الذى تعقدونه صلحاً أساسياً دائماً فإننى أدعو لكم بالفشل فى مهمتكم » .

تركنا ابن ربيعان وجماعته ، ومشينا من الجانب الغربى للوادى على أمل اجتيازه إلى الجانب الشرقى ، فغرزت سيارة الانتقال فى رماله ، ولم يتمكن الرفاق بمعونة أهل القرية من إخراجها إلا بعد جهد دام ست ساعات تقريباً . أما أنا فقد اغتنمت هذه الفرصة لأدوّن معلوماتى عن الخرما ووادى سبيع ، ولأستمع إلى بعض شيوخ الخرما وهو يروى لى وقائع الإخوان والأشراف مما ذكرته فى الفصل السابق .

كان البرد عند الصباح شديداً جداً ، فقد سجل مقياس الحرارة ٤٦ درجة فهرنهيت ، وكانت قراءة البارومتر ما يقرب من ٣٥٠٠ قدم ، والريح كانت تعصف بشدة وتلفح الوجوه بصقيعها ، فوجد الرفاق فى إخراج السيارة الغارقة فى الرمل سبيلا للدفء والنشاط ، غير أن حماسهم لرفيقهم الجديد « الدليل » كان ضعيفاً . والحق يقال إنه كان خبيراً بديرته كل الخبرة ، ولكن حينما اجتزناها إلى حدود رَنْية ظهرت عليه علائم العِىّ والرغبة فى إعطاء المعلومات صحيحة كانت أم خاطئة ، ولم تكن له خفة دليل اليوم السابق ولا ذلاقته .

كانت خطتى عدم السير ليلا إلا مضطراً ، كى أتمكن من مشاهدة معالم الطريق فى ضوء النهار . ولذلك فإن تأخرنا فى المسير من الخرما حتى الظهر حتم علينا المبيت قبل أن نبلغ رنية ، مع أن المسافة بينهما لا تزيد على ١٤٠ كيلومتراً ، وسأصف فيما يلى طريقنا التى سلكنا وما على أطرافها من المعالم البارزة .

٢ — صفة الطريق

المسافر من الخُرما إلى رنية لا يطأ أرض حرة سبيع المشهورة ، ولا يطأ عرق سبيع الرملى وهو مشهور أيضاً . أما طريق القوافل والمشاة فإنها تخترق الحرة من جنوبها إلى شمالها .

كانت استقامة سيرنا من الخرما إلى رنية استقامة الجنوب مع ميل خفيف بادئ الأمر إلى ناحية الشرق ، وحينما يفارق المسافر نخيل الخرما يبارى سلسلة من الهضاب القليلة الارتفاع والممتدة على ضفة الوادى الشرقية برهة غير قصيرة إلى

أن يصل مقطع شعيب « أم ران » وهو من الشعبان الصغيرة التى تفيض فى وادى سبيع . وتتغير طبيعة الأرض من سهلة ناعمة إلى سهلة حصباء إلى رملية إلى قاع رخو قد نثرت عليها حجارة من بقايا الحرة السوداء النخرة ، فجعلتها شبيهة بأرض الحرة إلا أنها ليست منها . وتقع حرة سبيع على يمين المسافر من الخرما إلى رنية .

و بعد نحو عشرة كيلومترات تبدأ أرض تسمى « الشقيق » إلى مسافة خمسة كيلومترات ، ثم تأتى أرض تختلف عنها اسمها أرض « القشاشة » ، وتختلف عن سابقتها بأنها رخوة ناعمة قد كسى سطحها بالبطحاء والحصباء . ثم تأتى أرض « الجعدة » وطولها تسعة كيلومترات ، تشبه الحرة فى شكلها وحجارتها وسواد لونها .

وتأتى بعد ذلك أرض « أم الملح » ومنها يشاهد إلى جهة الغرب بقرب الأفق ضلعان هما : « الأَسَيَّان » ثم تتتابع الأراضى بأسمائها المختلفة على الوجه الآتى :

كيلومتر	اسم الأرض
٣	دحلة المصاعبة
٥	أرض شعيب البَدْرِى ، و بقربها ضلعا العسكر
٧٫٥	و إلى الشرق ضلع عنيزة ، ثم جبل « تين »
٨	أرض المعاشير ، و بقربها ضلع الحميمة إلى الشرق
١٧	أرض « شعيب الناصفة » و بقربه ضلعان أبو السنون وضبع واليعايم
١٫٥	أرض الشجرة
٥	أرض سَرْجُوج ، و يشاهد منها إلى الجنوب الشرقى من ضلع ضبع جبل مرتفع كالسنان اسمه غرمول
٥	أرض « ذليقان » ، وتقع جبال اليعايم إلى شرقيها
٧	أرض شعيب « مراخة » ، ومنها يشاهد « كراع حنجرات » إلى الغرب

ومما يجب الالتفات إليه أن الأرض فى هذه الجهات تسمى بأسماء الضلعان والهضاب التى تجاورها . فلكل جبل أو هضبة اسم معلوم ، وشعيب يصفى مياه الأمطار المتساقطة ، وأرض محاذية تمتد بقدر امتداد الهضبة أو الجبل أو سلسلة الجبال .

بعد أرض « المراخة » تبدأ أرض تعرف بأرض « شعيب الجزعة » بقرب رجمة من الصخور قائمة وسط السهل ، وهذه الأرض تشبه الحرة فى تكوينها . ثم تأتى إلى أرض « الأغر » ، وبعد مسير ١٥ كيلومتراً فيها تدخل الطريق بين منطقة جبلية وتصبح الهضاب على الجانبين ، ولكن الفرجة تستمر فى التناقص إلى أن تصبح صغيرة جداً حينما تصاقب الطريق جبل بَضيع . ومتى وصل المسافر بضيعاً علم أنه أصبح بقرب رنية . ومن هنا تشاهد جبال مختلفة تعرف باسم « الرُّزَيْزَاء والخَرَاشِف والتَّغْدُوَة ووِرِكْ منيرة » .

٣ — رَنْيَـــة

لكل قرية أو بلاد علامة تدل على الاقتراب منها . فالمسافر من مكة إلى الرياض يعلم أنه قد اقترب من المويه حينما يصل الحلمة ، ومن الدفينة حينما يشاهد النهود ، ومن القاعِيَّة إذا شاهد ذريّع وهكذا . وأما القادم إلى رنية فإنه يرى أمامه من بعيد منظراً عجيباً جداً هو أقرب ما يكون إلى منظر بلدة عظيمة ذات قلاع وأبراج ومآذن ومساجد ، ولكنها فى الواقع مناظر الجبال والتلال التى تظهر فى الأفق بأشكال بهيجة تنعكس عليها أشعة الشمس فتكسبها منظراً خلاباً يأخذ بمجامع القلوب ، وقد يكون للسراب وخداع البصر دخل عظيم فى روعة المنظر وإكسابه ذلك الشكل المغرى الخلاب .

ويطلق أهل هذه البلاد على أماكن فيها أسماء غريبة مستهجنة يخجل الكاتب من تسميتها بالصراحة التى يستعملها أهلها . ويكثر فى هذه الجهات استعمال جملة (طيب الاسم) ، يكنون بها عضو التأنيث . وهنالك قرية فى وادى شهران بجوار سوق خميس مشيط اسمها (طيب الاسم) ويسميها أهلها (كسيسان) . أما فى رنية

فهنالك كما ذكرنا (غرمول) ، وهنالك (ذكر الخثعمى) و (ورك منيرة) ، وهنالك (الرزيزاء) و (طيب الاسم) . يذكرون الأسماء بالألفاظ المستهجنة ذكوراً وإناثاً بدون أى تكلف أو خجل .

لتسمية « . . . الخثعمى وورك منيرة » قصة يتناقلونها فى رنية بدون استحياء : كانت امرأة من رنية ترعى غنمها بقرب الجبل الواقع إلى جنوبى الديرة ، وكانت هزيلة قليلة الشحم واللحم ، فتمنت على الله أن يمنحها الصحة والعافية بحيث يصبح كفلها كالجبل القريب منها ، فأطلق على الجبل اسم « ورك منيرة » صاحبة القصة . وكان بقربها رجل من خثعم تمنى لو منح ذكراً كالجبل المستقيم كالسنان ، والواقع بقرب الورك ، فأطلق على هذا الجبل المحدد الشامخ اسم « . . . الخثعمى » دون حياء .

تقع رنية أو بالأحرى البلدة الكبيرة فى رنية على أطراف الوادى المعروف باسمها والذى ينحدر من جهة الغرب والجنوب متجهاً إلى الشمال الشرقى . وتحيط الجبال بالبلدة — من بعيد — من جميع جهاتها ، حتى إن القادم من الشمال يضطر إلى ولوج فجوات عديدة بين الجبال إلى أن يصل الديرة .

والجالس أمام قصر الأمير ابن صامل — شريف من العبادل — يرى جبل « التَّفْدُوَة » أمامه من جهة الشمال ، وجبلى الورك والخثعمى من الجنوب والجنوب الشرقى ، وسلسلة المسلوخ إلى الشمال الغربى ، والمَرَاشِف والسَّوَادة والفهدان من الغرب .

وقصر ابن صامل بنى على ربوة مشرفة على الوادى والسهل المحيط به فى منطقة متوسطة بين أسفل الوادى وعلوه . وتسمى البلدة التى فيها القصر (الحَزْم) و بقربها بلدة (الرُّوقة) التى هى السوق .

بتنا ليلتنا عند جبل الرّزيزاء ، وكانت الليلة باردة ، فلجأ الرفاق إلى كهف طبيعى نصبوا الخيام عند مدخله .

٤ — وادى رَنْيَة

كان يجب أن يطلق اسم (وادى سبيع) على (وادى رنية) لأنه ملك لسبيع من منبعه فى بلاد غامد إلى مصبه فى رِغْوة ، على حين أن الوادى المعروف باسم وادى سبيع هو القسم الأخير من امتداد وادى تربة بعد دخوله فى حدود بلاد سبيع كما مر فى فصل سابق .

يتألف وادى رنية من مجموعة من الشعبان تنشأ فى بلاد غامد فى السراة الحجازية وهو أحد الأودية الستة التى ذكرناها فى الفصل الأول . ويتجه من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، وكان يظن أنه ينتهى فى وادى الدواسر ، والواقع أنه ينتهى فى عرق الدواسر ولا يتصل بالوادى نفسه .

وتقوم على أطراف الوادى المزارع وحدائق النخيل والقصور والقرى إلى مسافات بعيدة ، ولكن أكثر العمران فيه يبدأ من حين دخوله فى بلاد سبيع ، والقرى الواقعة على الوادى متقاربة متصلة ، يرى الإنسان إحداها من الأخرى ، إلا أن أعظمها وأهمها ما كان واقعا عند منتصفه حيث يأخذ الشعيب أقصى اتساعه وحيث تكون الأراضى الواقعة على أطرافه أخصب وأصلح للزراعة والفلاحة .

علوّ الوادى عند ماء (ثَرَاد) فى ديرة غامد . ومن منبعه إلى حين دخوله فى أراضى سبيع هو خال من القرى ، ولكنه لا يخلو من مياه أهمها (ثراد) ثم (العقيق) وهو ماء ونخيل لغامد ثم المشْوَرَة ، وهو ماء لغامد تجاوره مزارع ، وهذه هى أسماء المياه والقرى الواقعة على الوادى بعد دخوله فى أرض قبيلة سبيع :

الصغيرية ، المَصْيَدة ، عين أبى مليح ، الملاح . كلها مياه لسبيع ، وقد يكون بقربها مزارع وعَشَارى .

المخيفيشة : ماء ، وبقربه نخيل ينزله الشواوى من شمران وسبيع .

المِغْـرَاة : ماء ، وفيه نخيل وقصور .

الفَجَانة : مزارع ومياه ، ولا نخيل فيها .

الأملح : وهو أول العمران فى وادى رنية من جهة الجنوب الغربى ، وهو ملتقى طرق القوافل بين الخرما ورنية و بيشة .

الحَجَف : قرية ونخيل .

الجُرْثُمِيّة : « « «

الضرْم : تتألف من خمس قرى متلاصقة ومزارع شتوية هى : اللِّوَى ، قرَة ، الظهيرة ، حُوَيِّد ، مقابل .

كويكد : قرية ونخيل .

ملهى : « « «

الحزم : وهى بلدة الحكم ، وفيها قصر ابن صامل

الروضة : وهى السوق الأسبوعية .

الدعيكة : قرية ونخيل .

المساورة

العطف

المدهال

العماير : وهى قرية ونخيل للشميسات من سبيع ، وهى آخر العمران من جهة الشمال الشرقى .

و بعد هذه القرى توجد مياه يردها الرعاة وهى : الرَّجع ، المنعشة ، رِغْوة ، جرَيِّد فى بلاد الدواسر ، وماء الوغدية وظاعن حيث يختفى فى عرق وادى الدواسر عند هجلة المختمية .

ويفيض فى وادى رنية من اليمين شعيب البَحْرة ، ومن الجهة اليسرى شعيب غَثْران عند الأملح وشعيب قرة عند بلاد الضُّرْم .

معيشة أهل رنية بسيطة هادئة . هم زراع بالطبع ، وأهم زراعتهم النخيل والحبوب ، وهم بعدُ أهل ماشيه وجمال ، وعندهم ذوق فى صناعة النسيج الصوفى الخاص بالأخرجة والهميانات . وهم وأبناء عمومتهم فى الخرما متفقون ضد أعدائهم الكثيرين فى كل

أطرافهم ، ولكنهم فى رنية أبعد من غيرهم عن الفتن والحروب . وقد رأينا فى المنازعات التى قامت بين الأشراف والإخوان أن سبيع من أهل الخرما وجيرانهم من البُقوم قد حملوا القسط الأكبر منها ، أما أهل رنية فكانوا يفزعون وقت الحاجة فقط .

ويقع معظم العمران على الجانب الشمالى الغربى للوادى ، والاجتياز من جانب إلى آخر يستلزم قطع المفازة الرملية فى بطن الوادى أو بالقرب منه ، وكثيراً ما تفرز السيارات — وبالأخص الثقيلة منها — فى رماله ولا يمكن إخراجها إلّا بعد عناء شديد ، وهذا هو السبب فى أن أكثر السيارات تفضل السير مع الضفّة الشمالية الغربية إلى مسافة بضعة كيلومترات غربا حتى تدور من جوار قرى الضَّرْم الأربع فى علوّ الوادى ، ومع ذلك لا تسلم من التغرير .

حينما رجعنا من أبها ، كانت الأمطار عامّة والرمال متماسكة ، فسلكنا بطن الشعيب أمام قرية الحزم ، واخترقنا المسافة اختصاراً ، فوجدنا الفرق بين الطريقين عظيما يتجاوز بضعة عشر كيلومتراً .

مما يؤسف له أن حالة هذه البلاد الاجتماعية كحالة سائر البلدان المنعزلة عن العمران ، لا تفكر فى غير معيشتها المادية اليومية ، وليست لها آمال أو أمانى بعيدة . يستغلون الأرض بعد حرثها ، ويزرعون النخيل ، وينتظرون لقاء الله فى الآخرة . ومن هنا نشأ عدم اهتمامهم بالتغيير والتجديد .

ونساء هذه البلاد فى معايشهن مثل نساء بلاد الطائف ، وإن كنّ إلى البداوة أقرب ، ويشعر المسافر بالفرق بين أحوال النساء فى هذه الجهة وبينها فى عسير بمجرد وصوله إلى بلاد « خيبر » فى منتصف بلاد شهران ، وسنصف النساء وأزياءهن فى موضعه إن شاء الله .

والمسافة من الخرما إلى قصر ابن صامل فى قرية الحزم ١٤٧ كيلومتراً ، وحينما بتنا فى الرّزيزاء كانت درجة الحرارة ٦٠ بمقياس فهرنهيت ، وهبطت فى الصباح المبكر إلى ٤٨ درجة .

الفصل السادس

وادى بيشة

على طريق بيشة — وادى بيشة وأقسامه — روافد بيشة — قبائل بيشة — فى بيشة

١ — على طريق بيشة

سرنا من رنية ضحى يوم الجمعة الواقع فى ١٧ شوال ١٣٥٢ (٢ فبراير سنة ١٩٣٤) بعد أن أخذنا كفاية سياراتنا من البنزين ، فى طريق طويلة إلى جهة مرتفع الوادى حتى وصلنا قرى الضُّرْم ، وهنا كان علينا اجتياز مجرى الشعيب الرملى ، وتخترق الطريق أعلى الضُّرم ثم تنساب جنوباً على محاذاة سلسلة من الجبال تمتد غرباً من الشمال إلى الجنوب ، وفيها قنن وهضاب مرتفعة تسمّى على الترتيب : صَوْلة — العُوَيْن — الحُرْشاء والحِصَان — والجمّاء . وإلى يسار المسافر سهل منبسط ممتد إلى جهة قرية الرُّوقة وما وراءها من جبال المسلوخ . وهضبة الجمّاء تقع بين « ... الخثعمى » ووركَ منيرة ، ويبعد الخثعمى عن الضُّرم مسافة ٣٠ كيلومتراً إلى الجنوب .

وللأرض التى تخترقها الطريق كما للتلال والهضاب أسماء لا أريد أن أتعب القارئ بذكرها ، بل أكتفى بذكر المهم البارز منها أو ما كانت له صفة خاصة كجبل (طيب الاسم) الذى يتألف من هضبتين تسمى إحداها « حفير » والأخرى « شفير » . وبعد اجتياز هـذا الجبل بمسافة بضعة كيلومترات يشاهد المرء أمامه وعلى يساره (شرقه) عرقا من الرمال البيضاء هو عرق (حنجران) الذى يبدأ فى مكان اسمه « الحفرة » وهو ملتقى العرق الرملى والضلع الأسود .

ويرافق العرق الطريق مسافة أربعة كيلومترات ، ثم ينقطع بقرب « الحميمة » وهو هضبة سوداء تفصل الرمل عن السهل وتمنعه من الطغيان على الطريق ، وهذه الهضبة فريدة فى سوادها الفاحم الذى لا يشبهها فيه شىء مما يجاورها .

وحينما يصل المسافر إلى بئر الجاهلية يكون قد قطع من رنية مسافة ٥٦ كيلو متراً .

كان رفيقنا هذا اليوم رجلا من أهل الشَّرم خبيراً بالأرض عارفاً بأسماء الجبال والأودية ، فلم يترك شاردة ولا واردة . وقد ذكر لنا طرفاً من قصص أهل هذه البلاد منها ما هو من قصص الزير وأبى زيد الهلالى والسلطان حسن ، ومنها ما هو مقتبس ومنسوب إلى رجال معاصرين .

وحينما سرنا من بئر الجاهلية اجتزنا بضعة كيلو مترات من الأرض السهلة المحاطة بالجبال من بعيد ، وهى أرض يكثر فيها الظبى ، فصادفنا ثلاثة طاردناها برهة حتى اصطدنا أحدها . وقص علينا دليلنا طريقة صيد البدو للظباء قال : « إن البدوى الماهر يأتى الظبى من الجهة المضادة لهب الريح حتى لا يشعر الحيوان بريحه فيستنكرها ويفرّ منه ، فإذا تلفّت الظبى إلى ورائه ليشاهد هل هناك من يطارده وقف البدوى فى مكانه كأنه جماد مستقر ، فيطمئن الظبى ويشرع فى الرعى ، فيتقدّم الصياد البدوى إذ ذاك مسافة أخرى ، فإن انتبه له الظبى توقف كأنه جماد لا يتحرك ، وهكذا دواليك حتى يصبح على مسافة رمية منه فيرميه ببندقيته » . والبدوى مقتصد محتاط لا يسرف فى إطلاق الرصاص على طريدته .

مشينا من أرض السليل إلى أرض العريض وطولها سبعة كيلو مترات ، ثم دخلنا أرض « حيم » وطولها كيلو متران ، ثم أرض الشميط ، ثم أرض الحاوى حيث ضلع « منيظير » الذى قيّلنا بجواره للغداء .

سرنا بعد الغداء كيلو مترات قليلة فوصلنا أرض « دحلة المعاز » ، ويقع إلى يمينها ضلع صغير وإلى يسارها خشوم بنى رِفْدان ، والمسافة بين الضلعان اليمنى واليسرى حوالى كيلو متر ونصف .

تدخل الطريق بعد ذلك فى أرض النعام ثم أرض الحبل ، وهنا تضيق الفرجة بين الجبال ، فتصبح الطريق هى مسيل الوادى المسمى بالسوادة إلى مسافة سبعة كيلو مترات ، ثم تصل إلى هضاب بنى رفدان ، وترى وراءها سلسلة جبال عظيمة

تسمى « الجفر » ، ثم تصل الطريق إلى أرض صعبة تشبه أرض الحرّة وتمتد مسافة ستة كيلومترات .

ذكرت أن دليلنا كان ظريفاً خبيراً ، فكنّا نلتقط منه أقوالا تدل على خفّة الروح وتصوير الوقائع بالأمثال ، حينما اقتربنا من بيشة قال الدليل إنها بيشتان : بيشة القمح وهى علوّ الوادى فى بلاد قحطان وشهران ، و بيشة النخل المعروفة فى كتب العرب باسم بيشة عَبْطان . ويتمثّل البدو بغنى بيشة بقولهم : « لو أن مع بيشة بيشة لسابت العيشة » يقصدون بذلك كثرة خيرات وادى بيشة وخصبه وغناه .

وأخبرنا الدليل أن ديرة سبيع تنتهى عند ضلعان بنى رنفان فى أرض الذهاب ، وتبدأ من هنا ديرة أكْلَب من قبائل بيشة .

تمرّ الطريق فى أراضى النَّفْخَة و بطن ذى خَشِى وأرض الشَّدِيدَة التى يشاهد منها جبل « جُمْعُور » وهو الدليل الذى يهتدى به فى الوصول إلى بيشة ، وجبل جمعور هذا كثير الشبه بجبل النور فى أعلى مكة من حيث شكله وارتفاعه و بروزه عن الجبال المجاورة له .

وكلما قربنا من جمعور تغيّرت طبيعة الأرض المسمّاة بأرض الحونة ، ثم يزيد هذا الاختلاف حين تنبسط أمامنا السهول المحتوية على شجر الحمض والغضى وشجر آخر أكبر من الغضى ما كنت شاهدته اسمه « تَنْضُب » . وهذه الأرض على كثرة شجرها وعرة كثيرة الحفر والأقواز الرملية والتعاريج ، ومنها يشاهد النخيل فى وادى بيشة فى متسع رملىّ عظيم .

حينما يقترب المسافر من الوادى يكون قريباً من نخيل الجبرة فى أسفل وادى بيشة ، وتكون المسافة التى قطعها من رنية ١٦٨ كيلومتراً .

و بعد قرية الجبرة بمسافة نصف كيلو متر تقريباً تبدأ السيارة باجتياز الوادى الذى يبلغ عرضه فى هذا المكان أكثر من نصف كيلو متر ، ويمتد منتهى الرمل الواقع على ضفّتيه مسافة أخرى بحيث يمكن اعتبار مجرى الوادى قرابة كيلومترين ، إلا أن

هذا لا يغطّيه الماء إلا نادراً حينما يكون السيل عظيما جداً ، والغالب أن الوادى ينقسم هنا إلى مجريين شمالى وجنوبى ، وهذا هو السبب فى كون المجرى عريضاً هذا العرض .

وصلنا قصر الحكومة فى قرية الروشن مركز بيشة بعد مسيرة ١٧٦ كيلومتراً من رنية .

٢ — وادى بيشة

ربما كان وادى بيشة أكبر الأودية الستة وأطولها ، فإنه ينبع من سفوح سراة عَبيدة من قحطان إلى الشرق الجنوبى من جبال عسير ، وتجتمع فيه أكثر مياه جبال عسير وشهران وقحطان . قلنا أكثر لأن هناك واديا آخر يصفى قسما من مياه تلك البلاد وهو وادى تثليث .

يبدأ وادى بيشة كما ذكرنا من سراة عَبيدة ورُفَيْدَة ، وكانت تقوم عند مبدئه قرية عظيمة لم يبق منها إلاّ أطلال وخرائب ، هى بلدة جُرَش الوارد ذكرها فى كثير من كتب العرب ، ثمّ يقطع هذا الوادى حدود بلاد قحطان حيث يكون اسمه « بيشة ابن سالم » أحد زعماء قحطان ، ويدخل فى ديرة قبيلة شهران ، ويمرّ من مكان تقوم على أطرافه قرى شهران ومنها خميس مشيط ، وبعد أن يجتازها بقليل تصبّ فيه أودية فرعية غير أنّها غاية فى الكبر والأهمية ، منها وادى « تِنْدَحة » ووادى « أبها » المسمى « خَبيبِي » ، ويسمى عندئذ (أى بعد انصباب وادى أبها فيه) وادى « ابن هشبل » أو وادى « شهران » . أما بعد أن يجتاز وادى بيشة بلاد شهران التابعة لابن مشيط وشهران التابعة لابن هشبل عند المكان المسمى « واعر » والمعتبر فى الواقع أول وادى بيشة ، فيسمّى الوادى « بيشة النخل » أو « بيشة عَبطان » المعروفة فى كتب العرب[1] .

---

(١) ذكر الأمير سعيد بن مشيط أن وادى بيشة يقسم ثلاثة أقسام : بيشة ابن سالم ، وبيشة ابن مشيط ، وبيشة النخل .

فالقسم المرتفع من الوادى إلى جهة منبعه لا يمكن زراعة النخيل فيه ، بل إن سكان تلك الأطراف يعتمدون فى حياتهم على زراعة الحبوب ، ولذلك سمى « بيشة القمح » كما أسلفنا . واعتباراً من واعر يكون الإقليم معتدلا وصالحاً لزراعة النخيل فيسمى الوادى عندئذ « بيشة النخل » . وسنذكر تفاصيل الأودية والشعبان التى تصب فى أعلى الوادى حين تفصيلنا لبلاد شهران و بلاد عسير وقحطان ، وسنكتفى هنا بذكر بيشة النخل .

تقوم على أطراف الوادى اعتباراً من واعر إحدى وعشرون قرية يتراوح عدد سكانها بين أربعين وخمسين ألف نسمة . وهذه أسماء القرى متبعين فى ذكرها مجرى الوادى من أعلاه إلى مصبه :

١ — واعر
٢ — الحَيْفة
٣ — المَدْرة
٤ — الباقرة
٥ — نمران ، وهى محل سوق الخميس
٦ — الروشن ، وهى مركز الحكومة ومقر الأمير ومحل سوق الأربعاء
٧ — روشن المهدى
٨ — النفيضلة
٩ — أبا الشوك
١٠ — الصبيحى
١١ — الحمّة
١٢ — الحريرة
١٣ — الدّحو
١٤ — الدّيامى
١٥ — السّقيفة
١٦ — الدّوّار
١٧ — الرقيطة
١٨ — النّقيع
١٩ — الخرسعة
٢٠ — الشقيقة
٢١ — الجنينة ، وهى منتهى العمران والنخيل .

و يمتد الوادى فى مسيره إلى أن يلتقى بوادى رنية فى « رِغْوة » ، ويغوران معاً فى « المَهْمَل » عند « ظَاعن » .

ويبلغ امتداد الوادى اعتباراً من « واعر » إلى « الجنينة » مسافة يومين ونصف على المطيّة أى مايزيد على مائة كيلومتر ، وتبلغ المسافة من قرية « الروشن » فى بيشة إلى « خميس مشيط » ٢٥٠ كيلومتراً ، ومن الخميس إلى بلاد ابن سالم فى علوّ الوادى حوالى خمسين كيلومتراً .أما المسافة من « الروشن » إلى « الجنينة » فإنها تزيد على الخمسين كيلومترا .

فيكون طول الوادى من منبعه إلى مصبه ٣٥٠ كيلومترا فى العمران ، وربما امتد أكثر من مائة كيلومتر أخرى فى الرمال ، فيكون مجموع طوله فى هذه الحالة أكثر من ٤٥٠ كيلومترا ، وهو طول عظيم جداً كما يرى ، والبداة يقولون : إنه يمتد من الشعف إلى السعف[1]

٣ — روافد بيشة

لن أذكر هنا من روافد بيشة إلّا ما كان مصبه بعد « واعر » . وهذه الأودية التى ترفد الوادى ذات أهمية غير قليلة ، ففيها قرى عامرة بالسكان ، وكانت لبعضها شهرة عظيمة فى التاريخ . ومع أنى كنت متلهفاً إلى زيارتها فإن الظروف لم تكن لتسمح بذلك مع الأسف .

أولا : وادى تَرْج : ويصب فى بيشة عند نخيل الحِيفَة وفى الوادى نخيل ومزارع كثيرة ، وأهله شديدو البأس ، تمثّل بهم الشاعر ابن مقبل حينما قال[2] :

جلوساً بها الشم العجاف كأنهم أسود بترج أو أسود بعثّودا

وقال الخزازة العامرى[3] فى خصب ترج وغنى تربته :

وكأن النخيل من بطن ترج وهى حوم حنـــادس ظلماء

وقال أحمد بن عيسى الرداعى فى أرجوزة الحج[4] :

---

(١) الشعف أعالى الجبال ، والسعف يكنون به عن النخيل .
(٢) صفة جزيرة العرب للهمدانى ص ٥٤ .
(٣) « « « « ص ٢١٥ .
(٤) « « « « ص ٢٧٥ .

ما زال ذاك حالها وحالها تغشى ظلام الليـــل والأهوال
حتى أتت ترجا على أحمـــال وبيشـــة النخل بلا اغفـال

أمّا قرى وادى تَرْج اعتباراً من منبعه فى سراة الحجاز إلى مصبه فى وادى بيشة عند نخيل الحيفة فهى : —

(١) القويسا (٢) جماح (٣) البهيم (٤) حوران (٥) النقرات (٦) العريجة (٧) الحازمى (٨) البدور . والأخيرتان قرب الحيفة .

ثانياً : وادى تَبالة : ويصب فى وادى بيشة عند قرية الصبيحى التى ذكرناها بين قرى الوادى . والواقع أن الوادى المشار إليه يتغير اسمه قبل مصبه فى وادى بيشة ، فهو وادى تبالة فى أعلاه ووادى الثَّنِيَّة عند مصبّه .

ووادى تبالة هذا ملك لقبيلة الفَزَع من « خثعم » ويقال إنهم من « شمران » وقد ورد ذكر الوادى كثيراً فى كتب العرب وأراجيزهم . وقد قال فيه طرفة[١] :

رأى منظراً منها بوادى تبالة فـكان عليه الزاد كالمقر أو أمر

وذكره عبد الله بن عبد الرحمن الأزدى فى كلمته التى يذكر فيها افتراق الأزد[٢] :

فكلـــكم خيـار النـاس قدما وأجلدهم رجالا بعـــد عاد
وأكثرهم شـــبابا فى كهول كأســـد تبالة الشهب الوراد

وورد ذكر تبالة مع ترج وبيشة وهرجاب وقرى حوران وسواها فى قصيدة الحزازة العامرى ، كما وردت فى أرجوزة الحج[٣] لأحمد بن عيسى الرداعى

ولاحظنا أن بعض الشعراء ذكر أسد ترج وأسد عِتْود وأسد تبالة . وقد يتبادر إلى الذهن أنه كانت هنالك أسد فيما مضى من الأزمان ، والواقع أنه لا أسد فيها .

ذكر الهمدانى[٤] تحت عنوان : مواضع الأسد فى هذه الجزيرة المضروب بها المثل ، قال :

---

(١) صفة جزيرة العرب للهمدانى ص ١٧٣ .
(٢) « « « « ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .
(٣) « « « ص ٢١٤ و ٢١٥ و ٢٥٨ .
(٤) « « « ص ١٢٧ .

أسد تبالة وأسد تَرْج و بيشة وأسد عِتْود . فأما تبالة وترج و بيشة فهى من أعراض نجد ، ولا يكون بها أسد ولم يكن ، وإنما تريد العرب أسود بَيْش ويزيدون فيه الهاء[1] فيقولون بيشة بفتح الباء ، وهى مواضع الأسد « و بيشة بعطان » فهى بكسر الباء ، وقيل بل أرادوا بيشة نجد ، وأن رءوس هذه الأعراض من أعلى السراة منها ما ينحدر إلى نجد ومنها ما ينحدر إلى تهامة ، فما انحدر إلى تهامة فالأسد فيه ولهذا الجوار نسبوها إلى هذه الأعراض ، وربما قد طلع منها الواحد إلى أرض نجد قاطعاً من بلدة فعاث فيها ، فلعلّ أوّل من نسب الأسد إلى هذه المواضع عاين الواحد والزوج فى بعض هذه الأودية » .

وينسب إلى تبالة بيت « ذو الخلصة » وهو من الأصنام التى كانت العرب تعظّمها فى جاهليّتها[2] .

وهى واقعة على طريق الحج من صنعاء إلى مكة ، وفيها آبار عذبة ذكرها شعراء العرب وكتّابهم ، ولكنّها فى زماننا الحاضر بلاد فقيرة ، وفيها من القرى ١١ قرية منها : أربع لفرقة المُصْعَبين من خثعم قبل أن يتغير اسم الوادى فيصبح « وادى الثّنية » وهى : (١) السّو (٢) الهضبة (٣) واسط (٤) القوز . وسبع فى وادى الثّنية وهى : (١) الجبارين (٢) الفِدَنة (٣) المخرب (٤) خريب السوق (٥) مِصر (٦) القوزية (٧) الشديق .

وأما سكان الوادى فهم كما ذكرنا من خثعم ، ويقسمون أربعة أقسام :

(١) المُصْعَبين	(٣) البَطْنَين
(٢) بنو خِناس	(٤) بنو واس

ثالثاً : وادى هِرجاب من الأودية العظيمة فى بلاد شهران ، وينبع من أعالى السراة فيصفّى مياه الأمطار فى قسم كبير من بلاد شهران . ويقطعه طريق بيشة إلى

---

(١) وادى بيش فى تهامة عسير .

(٢) انظر بحث ذو الخلصة فى كتاب تاريخ مكة للأزرقى طبعة مكة بتعليق الأستاذ رشدى ملحس

خميس مشيط فى موضعين : الأول على بعد ٢٧ كيلومتراً من بيشة ، والثانى بعد ارتقاء الجبال قرب خيبر على بعد ١٣٣ كيلومتراً من بيشة . ويصب هِرجاب فى وادى بيشة بقرب الحيفة ، وليس على أطراف هذا الوادى سوى قريتين فى السهل القريب من منبعه ، وهما قريتا الخضرا والعماير .

رابعاً : وادى بِطْنة . وهو يصب فى وادى بيشة فوق واعر بقليل ، ومنبعه من بلاد غامد .

٤ — قبائل بيشــة

فى بيشة عدد من القبائل المتحالفة نذكرها فيما يلى :

أولا : قبيلة أَكْلَب . ويبلغ عدد محاربيها نحو ألف رجل وتقسم إلى بطنين :

الأول : عامر . وفيه من الأقسام خمسة : المزايدة ، الجُنَبة ، الجُبَرة ، آل منيع ، ابن عطبان .

والثانى: المحْلَف . وفيه من الأقســام أربعة : بنو هزر ، آل سحرة ، بنو سعد ، الجياهين .

ثانيا : قبيلة شهران . هؤلاء هم قسم من شهران الذين تمتد بلادهم على أطراف وادى بيشة من منبعه إلى مصبّه ، وهم كثيرو العدد والعدة ، وأقســامهم ستة : بنو واهب ، بنو مُنَبِّه ، المحلف ، الرَّمثين ، الحنارِشَة ، آل السَّنَد .

وبمناسبة ذكر شهران لا نرى بأساً من ذكر أقسامها الرئيسية التسعة التابعة لعسير (أى بلاد ابن هشبل وابن مشيط) وهى :

(١) آل رْشَيْد . وكبيراهم : ابن مشيط وأبو ملحة

(٢) آل غمر .

(٣) نَاهِس . وفيهم خمس بدائد : بنو على ، المزارقة ، بنو صغير ، آل الذئب ، حويز .

(٤) كَوْد .
(٥) بنو بجاد .
(٦) بنو واهب .
(٧) آل سرحان .
(٨) بنو رشحة .
(٩) آل ينفع .

ويتبع شهران فى الشمف : بنو مالك (أبنو مْلَيك) ، والقرعا ، وابن جابرة ، والمسفى . كما يتبعهم فى تهامة فرع الجهرة .

أمّا القرى التابعة لكافّة شهران فسنذكرها فى موضع آخر .

ثالثاً : قبيلة بلحرث[1] قريبة من وادى تَرْج ، وتقسم قسمين :

الأوّل : الخشارمة ، ومنهم أربع بدائد : العُرَمة ، آل الصَّمَّة ، الشّحوف ، آل عيسى .

والثانى : آل خالد ، ومنهم سبع بدائد : الخُرَشة ، الخُرْمة ، القَمْلة ، البطلان ، آل الربيع ، الحراملة ، آل مرير .

رابعاً : قبيلة خثعم . هم أهل قرى ومزارع ، ويقسمون إلى فرق أهمّها : بنو ميمون ، ابن عيدان ، أهل دِمَة ، أهل باشوت ، آل مرّة ، السروان ، المزارقة ، السلمان .

ومن خثعم أقسام فى تهامة هى : المنتشر ، العوامر ، بنو سهم .

كنت دوّنت هذه المعلومات عن خثعم فى رحلتى إلى « أبها » ، وكانت هذه القبيلة تابعة آنئذ لإمارة بيشة ، ولكنّها أتبعت منذ نحو سنتين إلى إمارة سراة الحجاز المسماة بغامد وزهران ، فكتب أميرها تركى بن ماضى عن أقسامها مايأتى :

الحضر من «خثعم» هم :

(١) هم من الشلاوة . وتوجد قبيلة أخرى باسم بلحرث ذكرناها فى كتابنا « قلب جزيرة العرب » ص ١٣٨ . وبعضهم يخلط بين القبيلتين .

(١) بنو ميمون
(٢) أهل الفوقة
(٣) أهل الهطبة .

وأما البادية فهم :

(١) بنو داس
(٢) الفزع .

خامساً : قبيلة بالقرن . هم أهل قرى ما عدا الصهب من دحيم فإنهم على البداوة ، وأقسامها ستة : دحيم ، آل مشيب ، بنو رزق ، آل سليمان ، آل الحميد ، آل كثير .

سادساً : قبيلة شمران . منها فرق تقيم فى تهامة ، غير أن لها أقساما فى ديار بيشة هي : العبوس ، سحاب ، آل مبارك .

٥ — فى بيشة

أقمنا فى بيشة يوماً و بعض اليوم ، وتجولنا فى أطرافها ، وزرنا بعض أعيانها ، ودرسنا أحوالها ، وجمعنا ما يلزمنا من معلومات وأرصاد عنها . و بيشة — بموقعها الطبيعى وخصب تربتها وتنوع إقليمها وكونها متوسطة بين عسير والحجاز والدواسر ونجد — ذات أهمية من الناحيتين الاستراتيجية والمواصلات . وقد كانت دائما مركزاً هاماً للحشد العسكرى الذى يساق من نجد إلى جهات عسير واليمن . وقد لعبت دوراً عظيما فى بلاد شهران وعسير أوائل زحف حركة الإخوان من نجد . وكان الغزو الأول الذى توجه بقيادة الأمير « ابن مساعد » لفتح عسير مؤلفاً من أهل بيشة علاوة على أهل نجد .

و يبلغ سكان وادى بيشة نحو ستين ألفاً . والجهاد المفروض عليهم فى الدرجة الأولى يبلغ ١٥٠٠ مقاتل .

وأما درجة الحرارة يوم مرورنا منها فكانت ٧٤ درجة فهرنهيت عصرا و ٧٠

درجة فهرنهيت صباحاً ، وتشتد درجة الحرارة فى أيام الصيف اشتداداً عظيما ، ولولا ذلك لما كانت زراعة النخيل فيها موفقة ناجحة . وقد قلّت مياه الآبار بسبب عدم فيضان الوادى منذ سنوات . أما السنين التى تكثر فيها الأمطار ويجرى فيها الوادى تبعاً لذلك فإنها تكون سنين خير وبركة .

والصناعات فى بيشة بدائية ، وما هى إلا دبغ الجلود وصنع سرج الخيل والإبل ونسج النسيج الصوفى الجاف الخشن ، مما يستعمل فى صنع الأبسطة أو الأخرجة .

والبيوت فى بيشة تؤلف عادة من طبقتين ، وتحاط بأسوار فى منتصفها أبواب كبيرة تتسع لدخول الجمال بأحمالها . وقد شاهدنا بعض البيوت الكبيرة ذات الجدران المرتفعة تخترق سقوفها كوى لتصريف الدخان ، إذ أن النار توقد وسط البيوت للتدفئة وعمل القهوة والشاى .

أما طراز المعيشة فى بيشة فقد تحول تحولا محسوسا واختلف عما عهدناه فى الحجاز وفى بادية الطائف . ومع أن العادات قريبة من عادات أهل نجد غير أنها لا تتفق معها تماماً ، كما أنها لا تشبه عادات عسير وشهران التى سنوضحها فى الفصول الآتية .

شُرب الشاى والقهوة ثم تقديم المَجْمر يحترق فيه عود النّد أو خشبة الإذخر التى تكثر فى البرية قاعدة عامة شاملة ، ويزيد أهل بيشة على ذلك تقديم النواشف من التمر وغيره للضيوف الممتازين . وهذا التفرد فى العادات ناشئ على الأكثر من وقوع بيشة على طريق القوافل الرئيسية التاريخية فى جزيرة العرب ، فهى ملتقى هذه الطرق أو الحاج المتجهة من اليمن وحضرموت وعمان ووادى الدواسر وعسير والحجاز ونجد . وفى القديم عرفت بيشة بأنها المعبر الذى دخل منه الأحباش فى طريقهم إلى مكة عام الفيل . وتوجد بالقرب من بيشة كتابة باللغة الحميرية القديمة تشبه الكتابة المنقوشة على صخرة فى ربع الزلالة بقرب السيل بالحجاز بينها وبين السيل الصغير على طريق الطائف للجمال . وقد جرت العادة بتسمية درب الجيش الحبشى بدرب الفيل ، لأن الفيلة والجمال معاً تعجز عن سلوك طريق السراة فتتركها إلى الغرب وتسير فى الطريق الشرقى السهل الذى يمر من بيشة .

تزوّدنا من « بيشة » بالبنزين اللازم لسياراتنا ، وهى المحطة الأخيرة قبل خميس مشيط . وقدم لنا الأمير دليلاً من رجاله من شهران ، خبيراً بالطريق والأرض والجبال والقبائل ، لمرافقتنا إلى الخميس .

وقبل مسيرنا وقمت لرفيقنا المهندس « كنعان » قصة مسلية ، مازلنا نلمزه بها إلى يومنا هذا : اشتهى كنعان كلوة الذبيحة . وأهل بيشة لا يبذلون كبير عناية فى طهو الخراف ، وكانت النتيجة أن تناول كنعان قطعة من الذبيحة لا يجوز أكلها ظناً منه أنها الكلوة ، فكانت فرصة للرفاق يتسلون فيها بمشاكسة كنعان وتعييره .

الفصل السابع

بلاد شهران

في طريق الخميس — بلاد خيبر — بين خيبر وتندحة — وادى تندحة — خميس مشيط
الأسواق الأسبوعية — قرى الوادى — السفور والزواج

١ — فى طريق خميس مشيط

غادرنا قصر الروشن ، دار الحكومة فى بيشة ، صباح يوم السبت الواقع فى ١٨ شوال ١٣٥٢ (٣ فبراير ١٩٣٤) ، وخلفنا سوق « ثمران » عن يميننا ، واتجهنا نحو الجنوب تنهب بنا السيارات الأرض نهباً . وبعد مسيرة ثلاثة كيلومترات وصلنا إلى ضلع اسمه « قرن الحديد » سرنا معه كيلومترين آخرين ، وكنا نشاهد من ورائه جبال « الشهيلاء » . ثم دخلنا فى أرض اسمها « المتن » يطل عليها « أبرق المنقاد » وفى مؤخرته ضلع « العيرة البيضاء » فالحمراء . وأرض « المتن » هذه سهلة رملية تجانبها الجبال من شرقها وغربها ، وعرضها حوالى ثلاثة كيلومترات ، وسرنا فيها من الشمال إلى الجنوب مسافة ١٤ كيلومتراً . وكنا كلما اتجهنا إلى الجنوب ضاقت بنا الفرجة بين الجبال وتشعّثت بما يكثر فيها من الشجر ، حتى نصل إلى ضليعات صغيرة تتسع بعدها الأرض مرة أخرى وتقوم إلى يمينها (غربها) سلسلة « لبت » ومن دونها « جرياش » ومن ورائها « غرابة » . ويكون إلى جهة المشرق فى الأفق « اللّبن » و « القراين » وهضاب « بنى منبّه » .

وبعد اجتيازنا لأرض المتن دخلنا أرض « الحُبُوب » ، نباتها السَّمر ، وطيئتها رخوة رخصة ، تغرز فيها السيارات ، يخترقها وادى « هِرجاب » عند جبل « مِرْياش » الذى يقوم كالحارس الرقيب على الوادى العظيم .

وبعد أرض الحُبُوب تأتى أرض « الحزّة » التى يرافقها « مِرْياش » من

غربيها برهة قصيرة ، ثم ينتهى « صياش » قبل أن تبلغ شعيبا اسمه شعيب « رنوم » على بعد حوالى كيلومترين ونصف متر .

و يشاهد المسافر من وسط أرض الحزّة سلسلة من الجبال إلى جهة الغرب تعرف باسم « الشراة » ، وهى السلسلة الموازية لسراة الحجاز وعسير المرتفعة . والجبال فى هذه المنطقة كثيرة ، بذل دليلنا جهده لتسميتها لنا وتعريفنا بحدودها من مبتداها إلى منتهاها ، غير أنى لن أتعب القارئ بذكرها هنا .

و بعد مسيرة ثلاثة كيلومترات من رنوم تبدأ أرض جديدة ، سماها الدليل باسم « صهى » وهى مجرى واد محصور بين جبال الشراة من الغرب وضلمان وهضاب مختلفة من الشرق ، و بعد أن نسير فيها مسافة كيلومترين نصل إلى الشعيب المسمى باسمها ونرافقه على ضفتيه مسافة غير قصيرة . وقد شبهت أرض صهى هذه بطريق مكة — الطائف من حيث وعورتها وكونها فى واد يرتفع كلما تقدمنا فيه ، إلى أن نصل بعد مسيرة خمسة كيلومترات إلى عقبة نرقاها ونتحول منها إلى أرض مستوية مسافة كيلومتر واحد ، ثم نعتلى عقبة أخرى . و يستغرق قطع أرض صهى من أولها إلى آخرها مسيرة عشرة كيلومترات ، حيث نفارق شعيب صهى ونسير فى واد آخر اسمه « وادى الميثاء » وهو ذو رمل أبيض خال من الحجارة والصخور . وتشبه الأرض هنا طبيعة الأرض الواقعة بين السيل والربع الكبير (ذات عرق) على طريق مكة — الطائف .

ندخل بعد ذلك أرض « جلالة » . وهى سهب مرتفع ، بقربه تلال وركام صخرية كالحرار ، و بعد أن نسير فيها خمسة كيلومترات نصل إلى مكان يسمى « هضبة البئر » التى يمر بقربها شعيب جلالة . و بعد مسيرة كيلومترين ونصف متر عن الشعيب المذكور نصل إلى بئر غزيرة المياه ، عمقها سبعة أمتار ، تجاورها صخور ملساء ، نقشت عليها نقوش كثيرة ، قد يخالها المرء كتابة هيروغليفية أو حميرية ، غير أنها فى الواقع أوسام الإبل وأوسام أخرى لا معنى لها ، وهذه البئر اسمها « بئر ابن سرّار »

و بعد كيلو مترين من البئر نقطع شعيبا اسمه « تلاع » ، ثم ندخل فى أرض «الحدبة» التى تبدأ على بعد مسافة ستة كيلومترات من البئر ، وهى أرض محاطة بهضاب حجرية ملساء اسمها «الصمع» وهى بطبيعتها مشابهة لأرض «الجثامية» و«الجُدَيْرَة» بين «الربع» و « أم الحمض » على طريق الطائف . وتشاهد من هذه الأرض هضاب متعددة مثل : نمرة ، وحقايلة ، وثعدة ، الواقعة بقرب قرية : العماير ، على وادى « هرجاب » . وترى أيضا أبارق العالة ، ورفضة ، والحصير ، وسيقان ، والصندب . ذوات اللون الأبيض الناصع الذى يميزها عما حولها من هضاب ومرتفعات ، وتمتد أرض الحدبة إلى مسافة ١٢ كيلو مترا .

وتبدأ بعد ذلك أرض « السرين » ، السوداء اللون ، الممتدة إلى مسافة تسعة كيلو مترات .

ثم تأتى بعد ذلك « كتنة » وهى أرض وواد مشهور فى كتب العرب ، تمشى السيارة فيه من أسفله إلى جهة منبعه عشرين كيلو متراً فى ملتويات ومنحنيات تحيط بها الجبال من كل جانب ، وتقوم على أطراف وادى كتنة جبال مشهورة مثل ضلع « قرن الوشيل » وضلع « ربة » و « ابن سرّار » . والسير فى الوادى يكون صعباً حتى نصل إلى ضور بنى منبّه ، لأن الطريق صعد . وضور بنى منبه ضلع صخرى أملس يقع على يمين الصاعد على الطريق ، ويمتد إلى مسافة كيلو مترين . وحين مفارقة الضور نصل إلى عقبة صعبة المرتقى عسيرته ، ولكنا رقيناها بدون أى حادث ، وحوّلنا السير من جهتها الجنوبية الغربية إلى « وادى قرن الوشيل » ، فنضطر إلى ارتقاء عقبة ثانية ، ثم بعد كيلو متر آخر عقبة ثالثة غير أنها أقل انحداراً من الأولى

دخلنا بعد ذلك أرض « الخلائل » التى بلغ ارتفاعها أعظم ما وصلنا إليه حتى الآن فى الرحلة ، إذ سجل البارومتر هنا علواً قدره ٧١٠٠ قدم . وأما أرض الخلائل فإنها سهلة كثيرة العشب والمرعى ، قد يتخذها بنو واهب من شهران حمى لمواشيهم ، وتقوم إلى شرقيها سلسلة « الحصاصة » . وقد شاهدنا فى هذه المنطقة رتلا من الظباء

طاردناها فلجأت إلى الجبال الصخرية فلم نتمكن منها . وأذكر أننا فى عودتنا شاهدنا فيها نوعاً من الحبارى النجدية صدنا بعضها . وتمتد أرض الخلائل مسافة ١٩ كيلومتراً ثم نبدأ بالتصعيد مسافة كيلومترين حيث تطل على مجرى وادى «هرجاب» الذى قطعنا قسمه الأسفل فى الصباح . وكانت الشمس قد قاربت المغيب ، والسيارات الصغيرة لم تكن قد لحقت بنا ، فقررنا المبيت فى هذا المكان .

حياة البرّية لذيذة مبهجة ، لاسيما متى كان المسافر مستعداً لها أو معتاداً إياها . وكانت معيشتنا فى سفرنا الحالى سائرة على وتيرة واحدة من الترتيب والنظام ، غير أننا — بسبب مبيتنا ثلاث ليال فى الخرما ورنية و بيشة — لم نتمكن من الاستمتاع بحياة البرّية الهادئة إلا ليلة مبيتنا فى «هرجاب» . نصب الرفاق الخيام ، وأرسلوا الدليل فى مشترى ذبيحة لعشائهم ، وانتشر أكثرهم يجمع الحطب استعداداً لهذه الليلة الباردة المقمرة ، وسمرنا إلى ساعة متأخرة من الليل مع ضيوف جمعتهم نار القِرى ، فكنا نسمع أحاديث القحطانى والشهرانى والعسيرى والنجدى والحجازى ، وامتزجت النفوس وطاب السمر ، فهب الرفاق إلى جذوع أشجار ضخمة فاقتلعوها وجروها ، مقلدين بذلك فعلة الأمير فيصل ليلة الربوة فى أرض « الجديرة » .

أفقنا فى الصباح نشطين أقوياء ، فرفعنا متاعنا ، وانسابت بنا سياراتنا تاركة وادى « هرجاب » إلى الشمال الغربى حتى دخلنا أرض « الحصاصة » التى تفصل بين مجرى « هرجاب » ومجرى وادى « أنْط » الذى يصب فى هرجاب أيضا .

و بعد مسيرة ١٥ كيلومترا من هرجاب نفارق وادى أنْط وندخل فى أرض النمر وهى سهلة فى مبتداها ، وتقع إلى الغرب منها ضلعان « الشفا » . ومما يلاحظ أن شعيب « نمر » يصب فى وادى « المسيرق» الذى يصب بدوره فى وادى «تثليث» . ونسير فى أرض النمر مسافة طويلة ، نقطع تارة شعيب نمر نفسه ، أو الشعبان الصغيرة التى تصب فيه ، ولا تكاد تنتهى من أرض النمر حتى تشاهد فى الأفق إلى جهة اليسار نخيل بلاد خيبر وقصورها .

٢ — بلاد خيبر

حينما سمعت بخيبر عجبت من التسمية ، لأنى كنت أجهل أن هنالك خيبراً غير خيبر المشهورة بوقعتها التاريخية فى صدر الإسلام والواقعة إلى الشمال الشرقى من المدينة المنورة ، ولكن خيبر شهران قد تكون أكبر من بلاد خيبر المدينة ، وأعدل هواء وأعذب ماء . وأرض خيبر هذه فيها رجوم وركام من الصخور السوداء ، وفيها شعبان وأودية كبيرة ، إلا أن أكبرها شعيب « السليل » ، وأعظم منه شعيب خيبر الذى يرفد شعيب المسيرق الآنف الذكر .

وتقوم بالقرب من خيبر عدة جبال أهمها جبل « شاع »[1] إلى الجنوب الشرقى منها . وتجتمع مياه الأمطار التى تهطل عليه وعلى جواره فى الوادى الذى يجتمع فى أول بيوت وادى خيبر مع وادى « الشيق » القادم من جهة الجنوب . وبعد أن يجتاز الواديان خيبر يتصل بهما المسيرق ، ويظل اسمه هكذا إلى أن يصب فى وادى « ثِفْن » بقرب الحَرَض . وثفن نفسه يصب فى وادى تثليث الذى سنصفه ونذكر روافده فى موضع آخر من هذا الكتاب .

أما بلاد خيبر فإن أهلها من شهران ، إما من كَوْد وإما من بنى واهب . وهى عدة قرى ممتدة على طرفى وادى خيبر والشيق والمسيرق . والبيوت هنا (وتسمى القصور) مبنية باللبن وهى كأحواش واسعة ، فى أحد أطرافها البيت الذى يشبه البرج ، ويتألف على الغالب من طبقين ، يستعمل الأدنى أيام الأمطار فى فصل الشتاء ويضم المواشى من بقر وماعز وغنم ، ويستعمل الأعلى فى فصل الصيف لخزن المؤن ، ولكن الغرض الرئيسى منه أن يستخدم للحرب ومراقبة العدو ومقاومته .

ومما يؤسف له أن انعدام الأمن فى هذه البلاد قبل ولاية الملك عبد العزيز آل سعود جعل السلامة الشغل الشاغل لأهل هذه البلاد وما جاورها ، ولذلك تراهم

---

(١) صفة جزيرة العرب للهمدانى .

قد جهزوا بيوتهم بوسائل الدفاع ، وكذلك فعلوا بمزارعهم التى يبنون فيها القصبات الشبيهة بالمنائر فيها مخاريق لرمى العدو وصده .

أما القرى فى وادى خيبر فهى :

(١) رِغْوة : فى أعالى الوادى ، أكثرها مزارع للحبوب ، وفيها قليل من النخيل . وأهلها من كَوْد من شهران .

(٢) البَرْدان : وتأتى بعد رِغْوَة . وأهلها من الصوح من شهران .

(٣) العَمَار : وهى للصوح أيضا .

(٤) خيبر : وهى لآل خُزام من بنى واهب ، وهى أحضر من العمار ، وفيها نحو عشرين قصراً .

(٥) واسط : وقصورها عشرة .

(٦) العمار : وهى غير الأولى واسمها الحقيقى عمار بن بجاد وفيها عشرون قصراً .

(٧) الحامض : وفيها نخيل ، وقصورها عشرة .

(٨) القفاض : بها عشرة قصور .

(٩) المباريش : أكبر من السابقة .

(١٠) الحنفة .

(١١) القوز : وهى بلاد لابن دليقم .

(١٢) البغث .

(١٣) الحرفين : وفيها عشرة قصور .

وأهم زراعاتهم البرّ والشعير والذرة والنخيل .

* * *

ومما يلاحظ أننى لم أشاهد نخلا بعد خيبر من جهة الخميس وعسير ، فكأنها الحدود التى ينتهى عندها زرع النخيل .

٣ — بين خيبر وتبلحة

بعد مسير بضع مئات من الأمتار عن قصور خيبر ، اجتزنا مجرى الوادى ، وسرنا محاذين لجبل « شاع » الذى أصبح الآن عن يسارنا على بعد قليل منّا ، وكنا كلما تقدّمنا فى السير اقتربنا من الجبل حتى السير على سفحه ، وأصبح السهل ممتداً إلى جهة اليمين حتى مسافة ثلاثة كيلو مترات تقريباً ، وهناك تبدأ سلسلة من الجبال الحمراء تسمّى « سلسلة الشميط » .

أما أرض الوادى فإنها من التراب الأسود الناعم ، ويكثر فيها شجر العراد ، وبعد مسيرة عشرة كيلومترات تضيق أرض الوادى ، وتبدأ السلسلتان اليمنى واليسرى بالاقتراب حتى يبلغ البعد بينهما أقل من ٥٠٠ متر ، وعندئذ نصل إلى مجرى وادى السليل الذى يصب فى خيبر ، وفى هذا المكان ينقطع جبل « شاع » ويبدأ المسير على سفح سلسلة جبلية واقعة على يمين الطريق .

تضيق الجبال الخناق على الطريق وتنفرج عنه مرة أخرى ، وهى تنساب على جانبى وادى السليل أو على أحد جانبيه أو قاطعة له ، ولكنها تنعرج مصعدة مع علوّ الوادى إلى مسافة بضعة كيلومترات ، حتى تبلغ ارتفاعاً سجّله البارومتر بمقدار ٧٧٥٠ قدماً .

ننتهى من أرض جبلية إلى أرض رملية ، ولكنا نعود بعد كيلو مترين إلى المنطقة الجبلية حيث نرقى عقبة يكون الارتفاع عندها ٨٠٠٠ قدم ، وتسمى الأرض التى وصفناها بأرض السليل نظراً لأن السليل يصفى مياهها وينساب فيها . ونسير بعد هذه العقبة قليلا فنقطع عقبة أخرى دونها فى الارتفاع ، ومنها تبدأ أرض اسمها « هضب الأشواط » وبقربها ضلع منفرد اسمه « قرن » . ومن هنا تتغير استقامة الطريق فتصبح مائلة إلى الجنوب الغربى تماماً ، ونترك « قرن » على يميننا بعد أن نكون سائرين فى استقامته ، وتصبح استقامة الطريق جنوبية تماماً .

نجتاز بعد ذلك شعيباً على بعد نحو كيلو متر واحد من قرن اسمه «شعيب ثقيف» ثم نرقى عقبة يكون الارتفاع فيها ٨١٠٠ قدم . وحينما نجتاز كيلومترين آخرين نصل إلى أعالى الهضاب المقابلة لنا ويكون الارتفاع عندئذ قد بلغ ٨٤٠٠ قدم . ومما لاحظته أن هذه الهضاب هى الخط الفاصل لتقسيم المياه ، فإننا بعد أن بلغنا أعلاها شرعنا فى الانحدار إلى جهة الغرب حيث تتصفى المياه إلى جهة وادى تندحة . و بعد مسيرة نحو كيلومترين قطعنا شعيباً صغيراً ثم قطعناه مرة أخرى بعد نصف كيلومتر فى مكان تكثر فيه الحسيان و بعض شجيرات النخيل والدوم . ثم يتلوى الطريق بين رجوم وركام صخرية يعسر المرور من بينها وتسير السيارة كأنها محشورة بين قالبين من الصخر الأصم . وهذه القطعة من الطريق من أشق وأعسر ما رأينا ، وقد اجتزنا بين هذه الصخور والركام الصخرية مضيقاً يكاد عرضه لا يزيد عن عرض السيارة بكثير وطوله يزيد عن مائة متر ، ولكننّا ما نكاد نفارق هذا المضيق العسير ونرقى أعلى العقبة من الجهة الجنوبية الغربية حتى نشاهد منظراً بديعاً فى الوادى المنبسط أمامنا ، هو منظر وادى تندحة وقراه الخضراء .

٤ — وادى تندحة

يحسب وادى تندحة من أهم روافد وادى بيشة حينما يكون اسمه وادى شهران أو بيشة ابن مشيط ، وهو يصفى السفوح الغربية للهضاب والآكام التى تفصل بين مجرى وادى بيشة ومجرى تثليث . وقد رأينا أن الشعبان التى اجتزناها فى طريقنا كانت متجهة إما إلى ناحية وادى بيشة (أنط وكتنة وهرجاب وتندحة) و إما إلى ناحية وادى تثليث (وادى السليل والمسيرق وخيبر) ، وعلى ذلك فإن وادى تندحة هو الوادى الثانى الذى يرفد وادى بيشة .

يمتد الوادى من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى فى منحنيات وتعاريج شديدة الميل إلى أن يصب فى وادى شهران فى مكان اسمه « الغريراء » بقرب بلاد

ابن هشبل ، ويبلغ طوله من منبعه إلى مصبه حوالى ٨٠ كيلو مترا ، ويكون مجراه ضيقاً شديد الانحدار فى بعض المواضع ، كما أنه ينفسح وينبسط فى مواضع أخرى ، ويشاهد على أطرافه أرض خضراء جميلة جداً .

وحينما قطعناه وجدنا فى مجراه الماء جارياً ، وقد أخبرونى بأن ماءه لا ينقطع إلا فى أشد السنوات قيظاً بخلاف سائر الأودية التى اجتزناها . نعم إن كثيراً من هذه الأودية توجد فيها « غيول » أى مواضع عميقة ينبع ماء الوادى منها ويؤلف بركة ماء واسعة ثم يغور مرة أخرى تحت الأرض فإن نبش عليه قليلا ظهر الماء وجرى . وأكثر مجارى أودية عسير وجبال تهامة عسير فيها من هذه الغيول ذات الماء الملوث والهوام الكثيرة والجراثيم والآثار المرزغية .

وتقوم على أطراف الوادى قرى عامرة ترى إحداها من الأخرى رأى العين . وهى صفة لم أشاهدها إلا فى أودية عسير و بلاد شهران وقحطان . وقد ذكر لى بعض الذين سافروا بطريق السراة من الطائف إلى اليمن أن المسافر لا يفارق نظره القرى والقصور فى انتقاله من مكان إلى آخر .

أما قرى وادى تندحة اعتباراً من منبعه إلى مصبه فهى :

(١) أهل الذيب
(٢) العُجير
(٣) ابن سامة
(٤) المزارقة
(٥) آل الحجاج
(٦) آل مستنير
(٧) أهل الزّلال
(٨) أهل الدر
(٩) آل ذَبابة
(١٠) آل بُوذُبان
(١١) آل العطف
(١٢) آل عيّاش
(١٣) آل الشُّعَيْثاء
(١٤) آل سويد الحوطة .

ولأهل هذا الوادى سوق يومه يوم الأحد ، يجتمعون فيه مع كثير من أهل القرى المجاورة لواديهم ، ويتبادلون فيه بيع السلع والأمتعة . وهذه العادة أى عادة

الأسواق الدورية الأسبوعية فاشية فيما كان إلى جنوبى الحجاز من البلدان ، حتى إن القبيلة الواحدة قد يكون لها أسواق على عدد أيام الأسبوع يتنقلون فيها من سوق إلى آخر كما سنبينه فى موضع آخر .

ولم نمكث فى تندحة إلا ريثما جمعنا ما أردنا من معلومات وأرصاد ، وسرنا مسافة ستة كيلومترات ، فانفرج السهل أمامنا ، ووصلنا إلى شعيب الأرض المسماة بالشرف بعد سبعة كيلومترات تقريباً ، ثم مشينا قليلا فأشرفنا من أعالى الهضاب على مجرى وادى الخميس « خميس مشيط » .

٥ — خميس مشيط

كانت فى ذهنى صورة للخميس لم أجدها مطابقة للأصل حينما بلغتها . سمعت بالخميس منذ سنوات ، وتصوّرتها مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء واسعة العمران معتدلة الإقليم ، لأنها كانت تتخذ مركزاً للعسكرات كلما حصل النفير إلى جهة الحدود اليمانية أو إلى جهة تهامة ، فحينما وصلتها لم يحقق الخَبَرَ الخُبْرُ ، نعم وجدتها معتدلة الهواء قائمة فى سهل منبسط تبعد عنه الجبال مسافات كافية ، ولكنى لم أجدها المدينة العظيمة ، المدينة التى رسمها الخيال فى ذاكرتى .

حينما أشرفنا على وادى الخميس من الهضاب الشرقية أصيل يوم الأحد الواقع فى ١٩ شوال ١٣٥٢ (٤ فبراير ١٩٣٤) كان أول مالفت نظرى الخيام البيضاء المنتشرة فى أطراف الوادى وفى جنبات السهل المنبسط ، وحركة الجيش وتنقلات جند الإخوان ، وما يلازم المعسكرات من حركات عسكرية أو قوافل مؤن وذخائر أو سيارات غادية رائحة ، كما استرعى انتباهى شكل جديد للبيوت لم أشاهده من قبل . وقد انساب الوادى فى السهل كالثعبان يتلوّى من حمارة القيظ ، وقد رُصّعت جنبات الوادى بالقرى المتصلة حتى كأنها تشبه قرية واحدة ذات حلل منتشرة هنا وهنالك .

أما بلدة الخميس فقرية اسمها الحقيقى « الدّرب » ، وتسمى الخميس لأن السوق الأسبوعى ينعقد فيها يوم الخميس . ويضاف السوق إلى أمير شهران : ابن مشيط من آل رشيد ، فيقال للقرية « سوق خميس مشيط » ، ويضيع اسمها الأصلى « الدّرب » فلا يعلمه إلا أهلها .

بعد وصولى إلى الخميس فهمت السر فى اختيارها مقراً للمسكرات الحربية ، ذلك أن « أبها » وإن كانت أكبر منها وأقرب إلى الحدود اليمانية وتهامة فإنها محصورة بين الجبال ، ولاتوجد فيها الفلاة لرعى الإبل ، وكذلك ليس فيها متسع لحركات جيش كبير . ووجدت أن ولى العهد قد اختار الإقامة فى مخيم نصب على أطراف الوادى على سكنى بيوت القرية وقصورها .

بيوت القرية ، بل بيوت سائرالقرى فى بلاد شهران ، متشابهة . حينما أشرفت من أعالى « الخميس » على المعسكر والقرى المجاورة له ، رأيت من أمر البيوت عجباً ! البيوت فى هـذه البلاد تسمى قصوراً أو حصوناً ، وهى فى الواقع كذلك . جدار مرتفع يحيط بمساحة واسـعة من الأرض بحسب قدرة صاحب البيت وسعته . وقد قامت فى طرف منه أو أكثر أبراج بعضها مفتول له مزارق ومرابيع للدفاع وقت الحصار . وقد قام فى جانب آخر برج مربع هرمىّ الشكل تقريباً ، قاعدته متسعة ، ثم تضيق كلما ارتفعت الطبقات إلى أن تنتهى بحرف علوىّ مسنّن ؛ يجعل للقصر منظراً جميلا ، ويظهر القصر بجملته كبناء فرعونى على الطراز الحديث له نوافذ ضـيقة لاتتسع لمرور شخص متوسط الجسم . أما طبقات القصر فقد تكون اثنتين أو ثلاثاً أحياناً وتكون أربعاً فى النادر . ومعدات البناء بأكملها وطنية محلية . اللبن النيىء يصنع من تربة الوادى ، والسقوف وجميع الأقسام الخشبية فى القصر تصنع من خشب الأثل المحلى الموجود بكثرة . وقد شاهدت عجباً فى أدراج سلم القصر المنسجمة مع شكله الهرمى ، فإنها متسعة فى أسـفل العمارة ثم تضيق كلما ضاقت مساحة البناء فى الطبقات العليا حتى تصبح دون المتر عرضاً فى الطبقة الأخيرة .

ويتجلى فى شكل العمارة هنا فرق آخر لمسنا طرفا خفيفاً منه فى بيشة ، وهو الاهتمام بزينة المنازل من داخلها ؛ فإن أكثر الجدران وأرضية الغرف وأدراج السلم تلون بالأصباغ النباتية المحلية غالباً ، ولكن أجمل الأصباغ التى رأيتها هى اللون الأخضر الحشيشى الذى يؤخذ من عصارة البرسيم . شاهدت النساء يطلين بيوتهن من الداخل بهذه الأصباغ المبهجة ، ودققت فى طريقتين متبعتين فى هذا الفن ، رأيت إمتاع قرائى بوصفهما .

تنقى كمية من التراب الرسوبى ، وتمزج بكمية قليلة من القش المسحوق (التبن أو ما يماثله) وترش بالماء إلى أن تتشرب تشريباً معتدلا ، ثم تدعك الكتلة دعكا قويا ، وتفرش على الأماكن المقصود إصلاحها وتسوّى بالأيدى (وألاحظ أنى لم أشاهد فى شهران، أو فى عسير ، أوحتى فى العارض من نجد آلات «المسطرين» لتسوية الطين ، بل إن العمال يستعيضون عن الآلات المعدنية أو الخشبية بأكفهم) ، ثم تبصص بملعقة معدنية إلى أن تجف فتظهر مصقولة براقة ، عندئذ تأتى النساء بالبرسيم يفركن به الأرض المطينة بقوة مواظبات على عملهن برهة غيرقصيرة ، ثم يخلطن الأصباغ الأخرى من أحمر قان ، أو أرجوانى ، أو عنابى ، أو أسود ، أو كلى ء يخططن بها رسوماً هندسية ، على قدر اجتهادهن فى التنظيم ، وإذا بالمكان بهيج بألوانه الزاهية ، جميل بأشكاله ورسومه ، ولكنه غير لطيف الرائحة على من لم يتعوده ، لأن رائحة البرسيم المدهوس تملأ جو الغرفة وتضيق الخناق على ساكنها .

والعمارة بالطبع ليست قائمة على قاعدة هندسية منظمة ، فقد يكون طول الغرفة أكبر من عرضها ، وقد يكون السقف مرتفعاً فى جانب أكثرمنه فى الجانب الآخر ، وقد يكون الجدار مائلا أو بارزاً أكثر من ميل الجدار الآخر أو بروزه . والأبواب والنوافذ ليست متساوية . والمهم أن هنا بيتاً للسكنى يظلل المقيم فيه ويقيه البرد والحر وعواصف الطبيعة . وأما الهندسة وجمال الفن فإنهما للآن قائمان على حسب مفهوم أهل هذه البلاد واستساغتهم لها . وحَسْب هذه البيوت أنها حرز لصاحبها تقيه عدوان أخيه الإنسان ، وتضمن له الدفاع عن نفسه وماله وعياله ، وهذا كل ما يلزم .

تسمى البيوت بالقصور أو الحصون ، وتسمى المحلة وطناً أو قرية ، وقد تسمى باسم معين لها ، ولكنها تعرف باسم ساكنيها ، فيقال قرية آل الحارث وقرية آل منصور وهكذا ، وليست البيوت على السواء من حيث الشكل والبناء ، فقليلها جامع للأوصاف السابقة ، وكثيرها يؤلف من بيوت واطئة متواضعة ضيقة . ولاحظت أنهم يسمون النافذة « كسترة » . والإقفال يسمونه : التقطيب ، فيقولون : « قطّب الكسترة » بمعنى أقفل النافذة . ويسمون الموقد : حللا . والمطبخ : ملهباً . وكثير مثل هذا من الاصطلاحات الخاصة .

يفضل كثيرون مناخ « الخميس » على مناخ « أبها » ، ولكن المزعج فى الخميس كثرة الرياح وشدتها ، فإنها تهدأ أطراف النهار ، وتهب هبوباً شديدا من الضحى إلى ما بعد العصر ، وأحياناً تدوم إلى الليل ، وربما كان مناخ الخميس أقرب إلى مناخ الطائف فى أواسط الصيف ، ولكن لياليه باردة جداً . وقد سجل مقياس الحرارة درجات مختلفة ، وأصغر درجة بلغها أيام إقامتنا فيها كانت يوم ٢٢ شوال سنة ١٣٥٢ (٧ فبراير ١٩٣٤) أربعين درجة فهرنهيت . أما ارتفاع « الخميس » عن سطح البحر فهو ٧٣٠٠ قدم .

٦ — الأسواق الأسبوعية

شهدت يوم السوق فى هذه القرية ، وهو كما ذكرت يوم الخميس : فوجدت أن أكثر القرى المجاورة يستعدون له أسبوعياً ، ويحضرون إليه ببضاعتهم من جميع الجهات ، من بلاد قحطان : ربيعة وَرُفَيْدة ، ومن بلاد عسير ، كما أن الشهارنة يحضرونه بانتظام . ويعقد السوق اعتباراً من ضحى يوم الخميس فى برحة متسعة واقعة بين القرية ومركز المخيم . وليس هنالك مخازن أو مبان لوضع البضائع وعرضها فيها ، بل إن الأمر لايتطلب أكثر من بضعة أعواد تغرز على أبعاد متناسبة وتغطى بقطعة من القلع أو الخيش فى خطوط متوازية أو متقابلة ، يجلس أصحابها فى ظلالها ، فيبسطون

بضائعهم أمامهم ويعرضونها على المارّة . والذى لايتمكن من نصب خيمة كهذه يكتفى برقعة من الأرض فى العراء يبسط فيها سلعته . وهنالك موضعان داخلان فى السوق برغم بعدهما عنه : أحدهما لبيع الحطب والحشيش من برسيم وقصب وخلافهما ، والآخر لبيع السائمة والماشية .

نعم إن فى الخميس بعض المخازن الدائمة للبيع والشراء اليومى ، إلا أن الأهمية العظمى للسوق الأسبوعى ، نظراً لكثرة العارضين والمشترين فيه . وقد تجولت فى السوق الأسبوعى ، كما تجولت فى السوق الدائمى وسط القرية ، فوجدت أن الأهمية للأول منهما . وقد شاهدت جميع السلع التى تلزم لأهل القرى والبادية من مأكل ، أو مشرب ، أو ملبس ، أو أدوات منزلية ، فلاحظت أن حاجات الطعام والملبس أكثر من غيرها .

* * *

ويوم السوق هو يوم العيد الأسبوعى فى المنطقة مثلما هو يوم البيع والشراء ، وهو فوق ذلك يوم المقاضاة والمحاكمة ، وإبلاغ إعلانات الحكومة للناس ، ويوم تأديب المجرمين ، وغيرذلك من الأعمال التى تعرض للناس فى معايشهم ، وعلى الإجمال هو يوم جامع تقضى فيه الحوائج ، وتفض فيه المنازعات والمشاكل ، لذلك تجد القبائل كثيرة الاهتمام بأسواقها ، مدافعة عنها ، عاملة جهدها على إبعاد المشاغبات منها ، وإقصائها عن كل مايشين سمعة أهلها ، أو يضعف حركتها . وقد وضعت إحصاء لهذه الأسواق فى الجهات الواقعة بين الطائف[1] والحدود اليمانية فوجدتها تزيد عن مائة سوق . وهذه أسماء بعض أسواق شهران وعسير وقحطان وما جاورها مع ذكر مواعيد انعقادها :

---

(١) الطائف نفسه يسميه أهل المنطقة من بادية ثقيف وسفيان وهذيل « الوق » ، وأما الطائف فى عرفهم فيطلق على المنطقة بكاملها .

اسم السوق	القبيلة	يوم انعقاد السوق
سوق الدرب لابن مشيط	شهران	الخميس
« ثلوث أبها[1]	عسير	الثلاثاء
« ابن حموّض	شهران	الاثنين
« بنى رزام من بنى مالك	عسير	السبت
« ابن سالم	قحطان	الأحد
« عبيدة	«	الخميس
« رفيدة ابن عامر	«	«
« أم زهران من ربيعة ورفيدة	عسير	«
« الحرجة	قحطان	الاثنين
« ظهران	وادعة قحطان	الخميس
« صلب	رجال المع	السبت
« الغاربين	بالأحمر	الخميس
« آل خريم	بالأسمر	الاثنين
« ابن مطير	بالأحمر	الخميس
« الشعبين	رجال المع	الأحد
« كسان	« «	الخميس

(١) يسمى أهل المملكة العربية السعودية يوم الثلاثاء « الثلوث » ويوم الأربعاء « الربوع » .

٧ — قرى الوادى

ذكرنا فيما تقدّم من الفصول أن هذا الوادى الذى أطلقنا عليه فى هذا القسم اسم « وادى خميس مشيط » أو « بيشة ابن مشيط » ينبع من ديرة « آل المسيرة » ، وهم قسم من « رفيدة قحطان » التى أميرها ابن هيف ، فى مكان يقرب جداً من خرابات جرش الوارد ذكرها فى كتب العرب فى أعالى مرتفعات عسير التى يسميها أهلها « السقف » أى الجبال بالقرب من صحن « تمنية » الذى يحسب حداً فاصلا لتقسيم المياه الغربية والشرقية والجنوبية أيضاً .

أولا : تقوم على أطراف الوادى حينما يكون فى ديار قبيلة رفيدة[1] قحطان القرى الآتية :

(١) المصيق	(٧) آل زهير	(١٣) آل الرّميح
(٢) القرحاء	(٨) ليوان	(١٤) الجوف
(٣) عنقرة	(٩) آل الداحى	(١٥) آل شوية
(٤) آل الشيخ	(١٠) آل السواد	(١٦) آل عرينة
(٥) الدّربين	(١١) آل المظبا	(١٧) آل غر
(٦) عراب	(١٢) آل عمرة	(١٨) آل نادر .

ثانياً : وحينما يصل إلى بلاد ابن سالم من عبيدة قحطان تقوم على أطرافه القرى الآتية:

(١) الرّمبة	(٦) القضعان	(١١) آل قريش
(٢) آل كنبة	(٧) آل ثابت	(١٢) آل عصبة
(٣) آل جلدة	(٨) آل مهدى	(١٣) آل قرعة
(٤) آل ألوف	(٩) آل هبيل	(١٤) آل بسّام
(٥) آل جلدة من الحف	(١٠) آل جبرة	(١٥) آل سليمان

---

(١) إن قرى رفيدة وأقسام بدائدها أكثر بكثير مما هو هنا ، ولم أذكر فى هذا البحث إلا ما كان واقعا على الوادى من القرى وهى قرية « جارحة » و « خطاب » . أما قرى قبائل ألحف ووقشة وذبحى والجمل وآل مستنير فقد تركتها إلى فرصة أخرى .

ثالثاً : أما فى بلاد شهران فعلى وادى بيشة ابن مشيط القرى الآتية :

(١) مسيحل
(٢) الرونة
(٣) نعمان
(٤) الهرير
(٥) الوقبة
(٦) ذهبان سكن الأمير ابن مشيط
(٧) الصفق
(٨) المثناة
(٩) آل عزيز
(١٠) الدرب ، وفيه السوق الأسبوعى
(١١) العرق
(١٢) قنبر ، سكن عبدالوهاب أبو ملحة
(١٣) الصمدة
(١٤) آل هميلة
(١٥) الغرابة
(١٦) طيب الاسم (كسيسان)
(١٧) معلوم
(١٨) أبو سليك ، وهى منتهى الوادى
(١٩) الجفور ، بينه و بين ابن هشبل .

رابعاً : وحينما يصل الوادى إلى بلاد ابن هشبل من بنى بجاد من شهران تقوم عليه القرى الآتية :

(١) المعامل
(٢) الرشدة
(٣) آل أبو ثور
(٤) الشهمة
(٥) آل بطاط
(٦) الشقر
(٧) الفريرة
(٨) شفان
(٩) بطنة بنى ثعلبة

أما الزراعة الرئيسية فى هذه القرى فإنها الحبوب (البرّ والشعير والذرة بأنواعها والدخن) . أما الخضر والفاكهة فإن عناية أهل بلاد شهران بها قليلة جداً . والمعيشة من حيث هى بدائيـة بسيطة ، بحيث إن سكانها يعتمدون فى مأكلهم على محصولاتهم الوطنية .

٨ ـــ السفور والزواج

من الأمور الجديرة بإنعام النظر فى أهل هذه البلاد سفور نسائها واختلاطهن بالرجال ، ولا فرق بين أن يكون الرجال من الأقارب أبناء البلد أو الغرباء والأجانب ،

ويشترك النساء فى أحاديث الرجال فى مجالسهم ، مهما كان نوعها ، سواء أكنّ أبكاراً أم ثيّبات .

والاختلاط بين الجنسين قد تكون له مبرّرات بين الأقارب ، وأما بين الأجانب فقد كان من الدواعى التى أهابت بالأمير « سعود » إلى وضع حد له وتحريم اختلاط الجنسين فى المجالس أو فى السوق .

وأما المهور فإنها رخيصة جداً ، وليس أدل على ذلك من معرفة أن المهر بين أبناء العم لا يتجاوز الخمسة إلى العشرة ريالات ، وأما بين أبناء القبيلة الواحدة أو بينها وبين القبائل المتصلة بها بصلة النسب فقد يبلغ المهر من عشرين إلى ثلاثين ريالا . غير أن كثرة الزواج بالجنود أدّت إلى رفع المهور إلى مائة ومائتين وأحياناً إلى أربعمائة ريال .

ولا يهتم أهل هذه البلاد بالكفاءة فى النسب ... حقاً إن عائلات الأمراء والأعيان لا تزوّج بناتها لغير الكفء ، ولكننى شاهدت حوادث كثيرة قد أغفلت فيها شروط النسب والكفاءة ، وكان الاهتمام بالمهر الغالى والزوج الكريم .

ويكفى أن يقع نظر الرجل على ابنة حسناء فيأتى إليها فى السوق أو على البئر ويحدثها فى أمر الزواج . ويمكنه أن يقول لها : « أنا ميدك[1] » ، فإن كانت راضية عنه تجبه بأنها « ميده » وتدلّه على والدها أو وليها الذى بيده أمرها ، ويتم الاتفاق سريعاً . وهنالك حوادث قد تجيب فيها المرأة طالبها بأنها « ليس ميد » أى لا رغبة لها فى الزواج .

والنساء يقمن بأعمال المنزل ، فضلا عن الاحتطاب وسقاية الماشية ونقل الماء إلى المنزل والبيع فى الأسواق . يبعن من حاصلات الحيوان أو الزرع ، باسطات سلعهن فى الأسواق الأسبوعية . غير أن الأمير « سعود » منعهن من ذلك درءاً للمفاسد بين أفراد الجند .

---

(١) « ميد » كلمة لم أعلم أساسها ، وقد تكون محرفة عن « ودى » ويعنى بها الرغبة فى الأمر وقصد إجرائه .

تضفر النساء شعورهن ، ويسرحن خصلة من الشعر فوق الجبين ويقصصنها ، فتبدو عليهن أشكال ذوات الأزياء الحديثة ، لا سيما عندما يلبسن الثوب الفضفاض الذى يشبه « موضة الكلوش » الطويل بين السيدات المتمدنات . ولسوء الحظ لم أسمع بإتقان النساء للخياطة ، فإن هذه الصناعة مثل كثير غيرها وقف على السادة الرجال . ولذلك فإن ثياب العروس تبتاع من المخازن التجارية مفصّلة جاهزة أو تعطَى الخيّاط فيفصّلها ويصلحها على هندام المرأة . ويتمنطق النساء بأحزمة من الجلد حول خصورهن ، فيتجلّين فى لبسهن أور بيات على الطراز الحديث !

وسأذكر فى الفصول المقبلة طرفاً من بعض العادات المتّبعة فى الأعراس والولائم وزيارة الأصحاب فى « عسير » ، فأقتصر هنا على هذا المقدار .